عبد التواب يوسف

الطفل
و
الموروث الشعبي

دراسات

الطفل والموروث الشعبي

عبدالتواب يوسف

الطفل والموروث الشعبي
تأليف: عبد التواب يوسف

الطبعة الاولى: ١٩٨٩

الناشر: وزارة الثقافة والاعلام ـ دار ثقافة الاطفال

ص. ب ٨٠٤١

سلسلة دراسات

تصدر عن قسم النشر في دار ثقافة الاطفال

الطفل والموروث الشعبي

مقدمة

لااظن ان كل كتـاب يصدر عن الادب الشعبي يجب ان يبـدأ بالتعـريف به ، كمـا ان مايكتب عن ادب الاطفـال لايـمكن ان نستهله بالحـديث عمـا نقصـده من هذه العبارة ، فقد ظهرت مؤلفات عدة حول الفلكلور والادب الشعبي ، وتــرجمت كتب كثيــرة عنــه وأصبـح له على مستـوى الـوطن العـربي مراكز ومعاهد تؤدي دورها البناء في مجـال الاهتمـام به والحفـاوة باموره . . كما ان أدب الاطفـال لقى في السنوات الاخيرة جانبا مما هو جدير به من عنـايـة ، وأصبـح يدرس في الجـامعات والمدارس ، ويمنــح اصحــابـه جوائـز الـدولـة ، وتفـرد له الصحف والمجـلات مساحات معقولة ، الى جانب مايكتب منه ، وعنــه . . والقــاريء لابـد وان عنــده خلفيـة بالنسبـة للمــوضــوعـين : الادب الشعبي من جانب ، والطفــل العـربي من جانب آخـر . . وحين نضفرهما معا فلابد أن شيئا جديدا سوف يكون ثمرة لذلك ، خاصة وقد تدفقت الكتـابـات حول هذه القضيـة بشكـل كبيـر في السنوات

الأخيــرة، حتى لقـد استطعنـا أن نحصي مايـزيـد على الالف كتابٍ للاطفال ـ في مكتبة جامعة رايت ستيت في مدينة ديتون بولاية اوهايو الامريكية ـ كلها تحوي قصصا شعبيـة . . وهي قصص منقـولـه عن كل بلدان العـالم، والكتاب يرونها تراثاً انسانياً يمتلكه الجميع، واصبح من حق الأجيال الجديده أن تحصل على حصتها منه .

وكثيرا ماارددد ان ابي قد حرمني من قراءة الف ليلة في طفـولتي، ومـازلت أشعر بأسف عميق لذلك، وان كنت قد لحقت ببعض ممـا كتبـه كامـل كيـلاني وآخرون نقلا عنهـا، كمـا سمعت الكثيـر من حكاياتها الفريدة وكانت عندي فرصة للاستمتاع في الطفولة ببعض السير الشعبية في قريتي وطفل اليوم محظوظ ازاء الاهتمام به، وبأدبه، وبـالقصص الشعبي بالـذات وهـذا الطفـل في أوربـا وامريكا اكثر من محظوظ ازاء هذه القضية، فقد استطاع الاستعمار ان ينهب بجانب الثروات الاقتصادية عشرات الالـوف من الحكـايات الشعبية الافريقية، وظهرت هذه الحكايات في كتب جميلة ملونه، استمتع بها أطفالهم، بينمـا لايعـرف الافـريقي حكـايـات بلده، كما ان طفل

نيجيـريا لا يعرف حكايات النيجر، وطفل النيجر لا يعرف قصص نيجيـريـا ، ولـم يحـاول هؤلاء الـذين اخذوا هذا التـراث ان يردوا لأصحـابـه جانبـا من جميلهم الكبيـر ومعروفهم الطيب . .

وهـم لـم يأخـذوه كمـادة خام فحسـب، بل انـهم «صنعـوه» وقـد استـوحـوا منه عشرات الاعمال، ونسجوا على منـوالـه في الكثيـر من انتـاجهم، واقتبسـوا منـه، وحـاكـوه، الامـر الـذي يجعـل الدّين ثقيلا، لاقبل لهم برده . . لقد وظفوه على عدة مستويات، اشار اليها د . عز الدين اسماعيل وهو يتحدث عن توظيف التراث :

لقد استعادوه مع بعض الاضافه

لقد استعادوه مع تفجيره

واستلهموه جماليا : شكلا وموضوعا

بل ان البعض كانت له مع التراث مواجهة .

وفي كل هذه المستـويـات كانت لهم رؤاهم الخـاصـة، ولـديهم من الجـرأة قدرا سمـح لهم بعـدم الـوقوف عند ظاهره ومن الشجاعة قدرا يسمح لهم بالتعامل معه دون خوف .

ومدين انا بهذا العمل الى تلك الدراسة النادرة التي قامت بها د. سهير القلماوي لألف ليلة منذ سنوات غير قليلة، ومن بعدها كتاب قصصنا الشعبي للدكتور فؤاد حسنين، ثم ذلك الجهد العظيم الذي بذله الدكتور عبد الحميد يونس، وتلاميذه:

د. نبيلة ابراهيم. د. عز الدين اسماعيل. فاروق خورشيد. د. محمود ذهني.. ثم د. احمد يونس.. ولايفوتني ان أشير الى اعمال رشدي صالح، وزكريا الحجاوي وابراهيم شعراوي وشوقي عبد الحكيم.

ولايفوتني ان أشير الى مجلة التراث الشعبي العراقية، والى الاخوة هناك الذين اعطوا هذا المجال اهتماما كبيرا.. بجانب مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربي والصديق علي عبد الله خليفه، وهؤلاء الذين جمعوا، ونشروا حكايات شعبية في كل ارجاء وطننا العربي ولابد من اشارة خاصة الى عبد الرحمن الابنودي، وجهده مع سيرة أبي زيد الهلالي، وكذلك الامريكية «انيتا بيكر» التي أعطت كل جهدها لهذه السيرة، ثم آمنه راشد ودراستها عن الادب الشعبي في الكويت.

بل أود أن أشكــر د. ماري لوهــوايت استــاذة أدب الاطفال في جامعة «رايت ستيت» بمدينة ديتون في ولاية اوهـايـو، فان لها يداً بيضاء على الكثير مما كتبته، كثمرة للدراسات التي حضرتها وحاضرت فيها خلال صيف ١٩٨٥ . .

عبد التواب يوسف

الادب الشعبي في عصر التليفزيون والفضاء هل يتقبله الاطفال ويقبلون عليه؟!

لماذا نجري وراء الحكايات الشعبية؟ ولماذا نبحث عن سلالات جديدة منها ان صح التعبير؟! ماالسر في ان العالم يلهث بحثا عنها، وجمعا لها ويتلهف على نشرها وطبعها ودرسها؟ ولماذا هي ضرورية للاطفال؟ . لقد حاولت هيلين لويري ان تجيب على هذه الاسئلة من واقع خبرتها كمؤلفة لكتب الاطفال متفرغة منذ عام ١٩٦٢ ، وكاستاذة علم نفس لها كتاب هام عن فرويد ويونج (١٩٦٣).

وقد حاول ميشيل هورنيانسكي ان يكشف لنا مدى «الصدق» في هذه الحكايات ، وذلك من خلال ممارسته للعمل أمينا لمكتبة جامعة كاليفورنيا مابين ٥٧ ـ ١٩٦٥ وله مؤلف كبير من كتب الاطفال نقد فيه مادة هذة الكتب ورسومها ومن هاتين الدراستين، ومن خبراتها الخاصة نطرح هذه القضية الهامة التي تسترعي الالتفات من

جانب الكثيـرين من النقـاد والكتـاب والمهتمين بقضايا التراث الشعبي والطفل.

الخيـال يرتـاد أنمنـاطق المجهـولة من حياة البشر

منــذ ساد عصـر «العقــل» وخيـال الانسـان يبحث عن منطلق، وعن اطـار يعمـل داخله . . لقد تحدث البعض عن انــاس تطـول آذانهم لتحميهم من قيظ الشمس وعن آخـرين بلا رؤوس وعيـونهم في اكتافهم، وكان ذلك قبل ثلاثـة قرون عنـدمـا كانت قوانين الطبيعـة لم تفسر بعد، وتوقع المفاجآت شيء عادي وطبيعي ويومي . . السحرة قادرون على الكثير، وبعض «العلماء» يبحثون عن حجر الفلاسفة يحوّلون به التراب الى ذهب، وآخرون يعقدون معـاهدة مع الشيطان . . بل تحدث تحولات في اشكال النـاس والحيـوانـات والجمـادات، ويصبح في مقـدور الــبعض ان يحـوزوا قوى أسطــوريــة، بلا مدى ولا حدود . . وتـراجـع كل ذلـك امـام الاكتشـافات العلمية خلال القرنين الماضيين، وأصبح انسان العصر لايصدق الا ماأثبتتـه التجـارب، وقصص الـرحلات مثلا لابد وان تكـون مصحـوبـة بالخـرائـط والـ ـور، واصبحت لدينا

وسائلنا العلمية لفحص الذهب. . واذا كان فاوست قد وقع معاهدة مع الشيطان فليس ايسر من كشف تزوير توقيعه!، لكن: هل كف الناس لذلك عن قراءة فاوست واعتبارها واحدة من اعظم كلاسيكيات الادب عالميا؟.

على ان الكُتّاب مازالوا يستثمرون تلك المناطق المجهولة من الحياة، ويطلقون لخيالهم العنان. . فهل هذا سير ريدرهاجرد في قصصه عن افريقيا وكونان دويل وهو يتحدث عن (العالم المفقود) في البرازيل، وجول فيرن في قصصه عن الخيال العلمي حول القمر وباطن الارض. .

وانطلق ادجار ألن بو وراء روح ـ الانسان بعد الموت، وحاول ويلز في مطلع هذا القرن ان يرتاد قضية «الزمن» في «آلة الزمن» واستطاعت أبحاث الفضاء أن تدرس القضية بشكل علمي وبعيد تماما عن الخيال. . ان الانسان حين تغيب المعرفة له أن يبحث عن ابتكار.

هذا هو عالم الخيال عند الكبار: مغامرات، وعواطف، وأشباح، وآلات، ومخلوقات غريبة، عالم مليء بظواهر لاتفسير لها، تقرأ عنه دون أن ننسى أين نحن ولا أين مكاننا في المجتمع، ولا ماهي مسؤولياتنا،

ولا كم بلغت أعمارنا . . انه ادب للكبار الناضجين ذوي المسؤولية .

غير ان هناك ادبا ينتمي الى عالم المستحيلات، يقع فيه اي شيء في اي وقت: ارنبا يحمل ساعة، وريح الشمال تتبنى طفلا، واربعة يسرقون الزمن والاميرة تتزوج ابن الحَطـ . ، والذئب يبتلع الجدة وذات الرداء الاحمر، والكاتب القادر على تطوَيع نفسه وقلمه لمثل هذا العالم هو وحده كاتب الاطفال، وهم قادرون على الانتقال من عالم الواقع الى عوالم الخيال الرحبة الواسعة، لانهم لم يتعرفوا بَعْد على كل قوانين الطبيعة وتفسيراتها العلمية ـ كالانسان قبل ثلاثة قرون، كما ان عقولهم لم تصبح كاملة النمو لكي تبحث في «معقولية» مايقال لهم او مايقرأونه . . ان ماحصلوا عليه من حقائق علمية أقل قدرة من أن يحول بينهم وبين تصديق المثيرات التي تُروى لهم، انهم لم يدخلوا بعد عالم «المستحيلات» هم يعيشون فترة «ان كل شيء ممكن» وكلما كان عمر الطفل صغيراً، كان من الممكن أن نستثمر ذلك بواسطة الحكايات الشعبية .

والسؤال: ترى ماهي منابع الحكايات الشعبية؟! . .

لاشك أنها ثمرة تفكير انساني ، وعقل البشر هو مبدعها، وهي ليست عمل فرد بذاته، بل هي «انتاج جماعي»، شارك فيه الكثيرون، وبقاؤها وخلودها يؤكّدان سلامتها وروعتها، مهما تضمّنت من عنف وقسوة. . انها في حدِّ ذاتها لها جمالها، ثم هي موحية للكتاب بالكثير. . ماكان في استطاعة أندرسون، او ادوارد لير، أو كارول، أوجورج ماكدونالد أو جيمس باري أن يقدم اعمالهم الفريدة لولا انهم عايشوا هذا العالم الرحب الفسيح . . ان الحكايات الشعبية ليست ثمرة عقل مجنون، او افلت زمامه، بقدر ماهي عبقرية انسانية، التقطت «موتيفه» اولمحة صغيرة وراحت - مثل لوحات الموزاييك - تُلصق هذه بتلك، الى ان يخرج العمل وقد اكتمل فناً فذاً. . لقد استطاعت العبقرية الشعبية ابتكار شخصيات لاتنسى ورسمها ببراعة منقطعة النظير: من ينسى السندباد وعلاء الدين وعلي بابا؟. ان المواقف التي تضمنتها هذه الحكايات ثرية عامرة بالحركة، والفكاهة والصراع، والعواطف الانسانية. . ماشبهها بنسيج العنكبوت: ناعم وقوي! . . وعلى منوال الشعب استوحى الكتّاب العباقرة اعمالهم وشخصياتهم: كل منا

مر به زمن جرى فيه . ـى سرعة ليبقى في نفس مكانه، كمـا فعـلت (مـلكــة ورق الـلعـب) في اليس في بلاد العجـائب، وكمـا صنعت «pipi» في أعمال أستريد لنـدجرين، وكما تفعل الشخصيات التي تتشكل وتتحـول وتتحـور كيفمـا تريـد في ألف ليلة وفي قصص (بـارابـا) التي تظهـر على الشـاشة وفي الكتب الشهيــرة باسم بطلهـــا . وقـد اتسـع باب الـخيـــال لهــذه الاعمـــال، واصبحت تزامِـــل الحكـايـات الشعبيـة، ورغـم أن لهـا مؤلفها، الا أنهـا اضـافة جديدة لما قدّمه الانسان عبر تاريخه من أسـاطير وخـرافـات، فقـد دبت الحياة على أيــديهم في اشيـاء ماتصـورنـا انهـا سوف تعيش وتتحــرك وتتصـرف، وتتحـدث بلغـة فريـدة في لونهـا، ومـااكثر مانـواجه في الحكايات الشعبية ومـاشـاكلها من اعمال أدبية بتعبيرات نجد أنفسنا مع كل حمــاستنـــا للغتنـا الفصحى - في مسيس الحـاجـة لنطقهـا باللهجات الدارجة تم صياغتها بالفصحى ليفهمهـا القــاريء في كل مكـان من وطننا العربي . . وهذه العوالم يتعامل فيها الناس

والحيوانات والاشياء ولكل منها شخصيته المحددة المنفردة: انها ليست اسطورية فحسب، بل هي الاسطورة ذاتها: اسطورة الحرية والفكر.

والذين يتعاملون مع الادب الشعبي، يجدر بهم أن يكونوا على مستوى لائق يمكنهم من تقديمه للاطفال كفنٍ عبقري ويشاركهم الصغار في الاستمتاع بما يحويه من خيالات، جنبا الى جنب مافي هذه الاعمال من موسيقى وشعر، لكن أيدياً آثمة تمتد احيانا الى هذا التراث فتخرّبه وتفسده، وقد عمد احدهم الى قصة زمار هاملين واجراها على مسرح مصر القديمة، ليفتري على التاريخ، ويعمد «الكبار» في مصر القديمة الى اخلاف وعدهم مع الزمار فيعاقب أطفالهم ويقودهم الى الجبل ويغلقه عليهم، الى أن يستجيب أهلهم لمطلبه.. هذه الاقلام التي تكتب مثل هذه الأعمال يجب ان تقصف بل ان ايدي اصحابها يجب ان تقطع حتى لاتمتد الى التراث بهذا العبث.

تفسيرات جديدة للحكايات الشعبية والخرافية

لماذا (الحواديت الشعبية في عصر التليفزيون)؟ كيف يتجاسر جهاز حديث صنعته التكنلوجيا على ان يقدم (ست الحسن والجمال) و (علي بابا) وهذا القصص القديم الذي كان لابد وان يعفى عليه الزمن؟ . .

الاجابة السريعة الواضحة على هذا السؤال: أن هذه «الحواديت» تحمل الاطفال الى عوالم من الخيال السحري، بعيداً عن أرض الواقع المرير، وتسهل لهم ارتياد دنيا الأحلام والهروب من واقع الحياة بقسوته وصعوبته!، وهذا في الواقع ليس بصحيح، بل العكس هو السليم، فالحواديت الشعبية تعكس صورة الطفل واسرته، وحياته، وتقدمها له جلية كأنها «مرآة» ان الاب

هو الـمـلك او السلطـان . . والام هي الملكـة في هذا العالم الصغير، وكلاهما عاقل، وعطوف قوي، والابن، هو الطفل نفسه، وهو «الأمير»، والابنة هي «الاميرة» وقد يكـون الابن الطفـل هو ابن الحطـاب الفقير الشجـاع الـذكي الـذي يستطيـع ان ينصّب نفسـه اميراً . . والرقم «ثـلاثـة» في هذه الحـواديت رمـز للاب والام والطفـل، وثلاثة ابناء ينجح أصغرهم ولا يوفق الكبيران، ويظهر هذا جليـا في سنـدريـلا المسكينـة المظلومـة التي تتـزوج الامير. . ان هذه الحواديت تمس وترا حساساً في نفوس الاطفـال وهو يتعلمون الكثير من خلال استمتاعهم بها، اكثـر ممـا تعلمهم بعض الحكايات الخيالية التي تكتب من اجلهم اليـوم فهي تتجـاوز حدود الخيـال المعقـول والمقبـول فيمـا يرى البعض كمـا انهـا بعيـدة عن تأكيد «الشخصيـة» . . من يريـد ان يكـون ساحـراوز أو دكتـور دوليتيل في حين ان في مقدوره ان يكون «الامـير»؟!

والسؤال يطرح نفسه :

ـ هل الحكـايـات الشعبية صورةحقيقية لعالمنا؟ أوعلى الاقـل لعـالم الطفل؟ اننا على يقين من ان الجواب هو: لا . . حتى لو قال بذلك فرويد ومن تبع مدرسته ، غير ان البعض يؤمن بان جانبـاً كبيـراً من العـوامـل النفسيـة الـداخليـة للطفـل تشكله هذه الحكـايـات ، اذ سرعـان مايـكتشف الطفــل ان الاب ليس هو الملك العــاقــل الحكيم ، بل هو ذلـك المارد المخيف الذي يحبه الامير الصغير او الاميرة ويكرهه في نفسه (حب يصل الى درجة الزواج وكراهية تمضي الى حد القتل) ، وان الام قد تبدو طاغيـة وقـاسيـة ، ومنـافسة اكثر منها مرشدة وناصحة وان الاميــر الصغيـر مجـرد شخص بائس حزين باكي يضـلّ طريقَــه في الغــابــة المظلمــة وتطـارده السـاحـرات والـوحـوش . . والكبـار الـذين تجـاوزواعهد الطفولة من الصعب عليهم ـ ان لم يكن من المستحيـل ـ ان يعـودوا

الى ذلـك العهـد بايامه الذهبية المضيئة حينا، المظلمة المضينة أحيانا . . وربمـا كان السبيـل الى ذلـك قصص افـلام المغامرات والبوليسيات بالنسبة للكبار، والسؤال هو

- من يرضى لنفسه ان يصبح قزما وسط عالم العماليق؟ !
قد يكون قلب القزم عامراً بالانسانية، حتى وهو خائف، لكن الطفل يعتقد سواء كان ذلك صحيحاً او غير صحيح
- انـه وحش وانـه يستحق السجن وقصص
haunted houses

البيوت المسكونة والاشباح تدرك هذه الحقيقة وتنسج من حولها انماطا تحاكي الطفل التائه في الغابة، ولم يحدث ان امتلأت الغـابـة بالحيوانات اللطيفة والطيور المغردة والاشجـار الحنـونـة على نحـو مايفعله والت ديـزني في افـلامـه . . كما انها لاتحتشد بالاشياء المفزعة كالعيون الـلامعة المحدقة، والوحوش الضارية على نحو مايفعله ديزني نفسه حين يمضى الى الطرف الآخر.

والحقيقـة فيمـا ارى ان الحكـايـات الشعبيـة - والاسطـورة - تستحـوذ على متلقيهـا ونحن الكبـار ندرك تماما انها ليست وهما او اكذوبة، والاطفال يدركون اكثر

من ذلـــك، ويمضـون ابعـد، اذ هم على يقين من انهـا غلطـــة ارتكبهـــا واحـــد من الكبـار. ان الاسطـورة ـ او الحكـايـة ـ قصة حقيقية رمزية، تقول اشياء كثيرة بطريق غير مباشر. انا قد لانستطيع ان نقول هذه الاشياء، او لانجسـر على قولها من جانب كما يحدث في الاحلام، في اليقظـة او المنام. . ومن جانب آخر قد يكون مانقوله ليس حقـيـقـيـــا، ولا هو واقعي لكنّـه يجب ان يكـــون كذلـك. . نحن نتـوق الى حدوثـه ونتطلع الى ذلـك. . ولـعـلـنـــا في ضوء ذلـــك نستطيـــع ان نفهم الكثيـــر من الحكايات الشعبية والاساطير.

ان (الام الغـوله)، والاب (ابو رجل مسلوخه)، وغير ذلـك من النمـاذج له دلالته الكبيرة. . ولن تخدعنا قصة سندريلا وسنوهويت حين تتحدث عن زوجة الاب، انها تمثل الأم أو سلطة اكبر. . والقصص تمثل في القصتين (غيرة) الكبيرة من الطفلة الجميلة، والرغبة في اخراجها من دائـرة الاسـرة او العـائلة. . وأمنـا الغـولـة وابـو زجل مسلوخـة تصرخ الاقلام بانها مرعبة مخيفة مفزعة للطفل وانـه يجـدر بنـا الا نحكيهـا لهم. . لم لا؟!. . ان لدى الصغيـر شعـورين نحـو ابيه وامه: الحب الكبير والخوف

الشديد من السلطة والتسلط وهذا اللون من القصص كما يؤكد كثير من علماء النفس انه ينفّس عما في نفوس الاطفال من ضيق، نتيجة لما يحدثه الاباء من احباطات تبدأ من سن الرضاعة حين تحرم الام طفلها من ثديها وهو راغب فيه! . . وهي بحاجة الى ان تفعل لكي تربيه وهي لاتستطيع قط ان تستجيب دوما لرغباته، فهناك احتياجات ضرورية له . . وبين الرغبات والاحتياجات تبدأ (دراما) الحياة والصراع فيها . . وفي قصة سندريلا نلمح احتقار اختيها لها، انها المنافسة الناشبة بين (الاخوة)، وهي منافسة لايمكن تفاديها، وان كان من الممكن استثمارها . .

والاطفال في عصر التليفزيون مفتونون بالكارتون والصور المتحركة، وهي تشدهم ليبقوا معها طويلا . . لكنها لن تبقى طويلا . . بينما تبقى قصص الشاطر حسن والسندباد وعلي بابا وعلاء الدين وسنوهويت وسندريلا. نعم، الاطفال يتابعون أعمال «والت ديزني» و «حنا بربارا» على الشاشة الصغيرة، وهم قد يتقمصون دور البطلة الصغيرة . . التي ترمز للطفل اليتيم التائه الذي تهدده الاخطار عند كل منحنى طريق، متمثلة في

الثعلب المتربص بالبطة ولاينخدع الاطفال بصوته المبطن بالرقة والحنان، فهم بعلمون تماما انه يريد ان يغدر بالبطة، وكم يستريح الطفل حين تفلت من براثنه . .

لكن، ماذا عن الاب؟! انه موجود، طيب وحنون في مواجهة قسوة الام، لكنه مغلوب على أمره وواقع تحت سيطرتها، ولاحول له ولاقوة (قد يتبادل الاب والام الواقع: هو حنون حين تكون هي قاسية، والعكس صحيح) وربما يكون الاب ـ في عصرنا هذا مشغولا في اعماله اومكتبه، ويكون المنقذ في الحكاية الشعبية شخص آخر: الحطاب ثم الاقزام السبعة في سنوهويت ـ كبار في السن، ولكنهم لايتجاوزون الطفل حجما ـ يتطلع اليهم ويجدهم في مستوى نظره، بدلاً من أن يجد نفسه عند (الركبة) من سيقان العمالقة! والقصة توزع (الاب) على سبع قطع، هم الاقزام الصغيرة، وتستطيع الصغيرة ان تقوم له بدور ربّة البيت ـ الزوجة الام ـ دون صعوبة . . وهو ماتفعله «سنوهويت» تأكيدا لما أشارت اليه نظريات علم النفس حين تحدثت عن عقدة اوديب وعقدة البكترا، ويعنون بها حب الابن

للام، وحب الابنة للاب . . لكن الاب ـ يغيب . . كثيرا مايغيب . . يذهب للعمل او المكتب . . كما يفعل في الحياة وكما فعل الاقزام السبعة، وهنا تحاول الام ـ البديلة ـ التدخل الى درجة القتل بارسال التفاحة المسمومة مع البائعة! ، وتسقط سنوهويت نائمة كالميتة وتظل كذلك الى ان ينقذها الامير . ان خاتمة القصة تستقيم ـ نفسيا ـ مثل بدايتها . . ان الوسيلة الوحيدة للهروب الحقيقي من نوم الطفولة الطويل الذي تدفعها اليه الام ، هو أن تصحو في جو من الحب، وأن تنطلق بعيدا مع الامير الذي يختارها لتكون (الملكة)!

محاولة لدراسة هانزل وجريتل

والان تعـالـوا بنـا الى مثـل آخـر لايقـل شهـرة عن (سنـوهـويت) او (سنـدريـلا) انه قصة (هانزل وجريتل) **Hansel Gretel**
وهي تدور حول نفس الفكـرة بشكـل اكثـر عنفـا وقسوة ، وهي قصـة لاينسـاهـا الاطفـال بسهـولـة بل تستقـر في أعمـاقهم وذكـريـاتهم ، وان كانـوا احيانا يشعرون ازاءها بالكثيـر من الخجـل ، فان امهم ليست على هذه الدرجة من السوء . .

القصـة تقـول أن هنـاك طفلين ـ هـما في قارب واحد هنـا ـ ومـرة اخرى تتخفى الام في ثوب زوجة الاب وهي تريـد التخلص منهمـا بحجة أنه ليس لديهم مايكفي من طعـام ، وهي هنا لاتلجأ الى الحطاب . . كما حدث في سنوهويت لكنه الاب نفسه ، يُجبَر على أن يحمل طفليه الى الغـابـة ويتـركهمـا فيهـا ، انـه الاب الذي يغفل عن اولاده مرة اخـرى اويغيـب عنهم اويتخلص منهم لكن هانـزل الاكبـر ، يسمـع ـ الحكـايـة ، فيدبر العودة للبيت بالقـاء الاحجـار الصغيرة التي تعود بهما للبيت في المرة

الاولى ، ولكنـه في المـرة الثانية يفقد الطريق ولاذنب له لان الطيور اكلت او التقطت فتات الخبز الذي جعل منه معـالم تدلـه على سبيـل العـودة . . ان الاطفـال ليسـوا قادرين دوما على الخروج من كل مأزق بمفردهم ، وهذا تعبير عن العجز . . ونحن هنا مرة اخرى في صراع مابين الاقزام والعماليق . . الاطفال والكبار . . والطفلان خلال الغابة يعثران على بيت تقيم فيه العجوز الساحرءة تسجن الطفلين ، وتقدم لهما الطعام . هل هناك أوضح من هذا تعـبيـرا عن دور الام؟ قد تخطـيء الـعين العصـريـة المتعجلة هذه الامـور الـرمـزيـة البـالغـة الدلالة ، لكنها لاتغيب عن عين الدارس الباحث الفاحص ، انها (الام) الـتي تسمّن اطفـالهـا وتأكلهم ولاتـدع لهم حيـاتهم الخـاصـة ، يعيشـونهـا كمـا يريـدون وكمـا يرغبـون ، ويشكلونهـا وفق رغبـاتهم واحـلامهم وميـولهم وامالهم ، والاطفـال غيـر الكبـار هنـا ، انهم يدركـون الحقيقة وراء تصـرف السـاحـرة الشـريـرة التي تريـد ان تلقى بهم في الفـرن ، الـذي هورمـز للرحم الـذي يود الاطفـال ان يخرجوا منه ، والسبيل الوحيد امام الاطفال هو ان يضعوا هذه الساحرة الشريّرة في الفرن الذي اعدته لهم (العين

بالعين والبـاديء اظلـم . . والعقـوبـة قاسية، لكن هكذا الحياة) وعندما يفعل الطفلان ذلك،

ويعــودان الى البيت يجــدانــه قد خلا من تلك المـرأة الشـــريـرة (زوجـة الاب) رمـزا للام ـ ويبقى لهمـا الاب الطيب الحنــون . . ويعيشـــون سعـداء . . انهـا الغيـرة والصراع والمنافسة، حين تترجم الى قصة شعبية . .

ماذا عن قصة جاك واعواد الفول؟!

وفي (جاك واعواد الفول) **Jack & the beanstalk** جاك هنـا ولـد وحيد، تقول القصة ان اباه مات أولا وجود له (مرة اخـرى، لايصدق الطفل ذلك، ولابد وان يتأكد من الامـر ويجـد الـدليـل عليـه) . . اننا امام نموذج آخر لقصـة سنـدريـلا، لكننا امام طفل يحاول أن يعرف اكثر من الكبـار أو أن يكـون افضل منهم، وحبات الفول التي اتى بهـا جاك الى أمـه في البيت حبـات مسحـورة، هي أثمن بكثير من البقرة التي تنازل عنها في مقابل الحصول على الفـول. . انهـا حبـات تمنحـه مدخـلا سحريا الى عالم الكبـار. . انـه بصعوده وتسلقه لأشجار الفول يصل الى حيث يستطيـع ان يكـون في مستـوى ابيـه العملاق وفي مواجهتـه. . الاب دوما عملاق. . غول يشم رائحة دم الطفـل ويريد ان يلتهمه لانه استحوذ على الام ولكن من المؤكـد ان جاك سوف ينتصـر رغم ضآلـة حجمه اذا قيس بالغـول. . وزوجـة الغـول ـ رمـز الام مرة اخـرى تخـاف من زوجهـا وتتعـاطف مع الطفل، وجاك يستطيع

ان ينقـذهـا من هذا الزوج الرهيب (رغم ان القصة تقول ان الاب مات، الا انه يظهر هنا في ثوب الغول) وينتصر جاك انـه اولا يجـرد الغـول من كنـوزه بالاغارة عليها في جســارة وشجــاعـة . . وبـذلـك يجـرد أيضـا من قواه وأسلحتـه . . ونستطيـع ان نستنتـج ماتـرمـز اليـه الكنـوز والاسلحـة والقـوة . . ثم يقطـع جاك أعواد الفول ليسقط العمـلاق صريعـا على الارض . وتتحقق للصغير احلام المجد: الرجولة، والمال، والام . . كلها له!

واذكر طفلة كانت تشاهد القصة على شاشة التليفزيون، وفجأة صاحت:

ـ آه . . ان الكنوز كانت ملكا لوالد جاك!

ان القصـة الجـديدة تريد أن تقول أن جاك لم يسرق الكنـوز من الغـول، لكنـه استعـادهـا واستعـاد المـزمار السحري . . الكاتب هنا يريد ان يجعل من جاك بطلا، وحصنـا للعـدالة، لكن كانت هناك مشكلة: لماذا يشكو المزمار لأنه سُرق، اذا لم يكن الغول هو مالكه الحقيقي؟!

وقـد سمعت القصـة (جـاك واعـواد الفـول) يوما من طفل، يتحدث عن الغول بعد ان وقع من فوق الاعواد،

لقـد صرخ: آه. . واضـاف الصغيـر ان الغـول لم يمت وانما اعطى جاك قطعة من الحلوى، لانه كان غولا طيبا وقد عاشا معا سعداء! . . ان الصغير ادرك ان الغول يرمز للكبـار وهـو لايـريـد ان يَجْـرح مشـاعرهـم، أومشاعري شخصيا، فقد كنت بمثابة الاب لهذا الطفل.

القزم وبنت الطحان

والرحلة الرابعة ستكون مع رمبلستيلتسكين
Rumpelstilstkin
وهي عمل مختلف في وضعه عما سبق، وهو في اسلوبه اكثر القصص اثارة. من ذا الذي يستطيع ان ينسى ذلك الرجل الصغير الغريب الذي يحمل هذا الاسم الطويل الطريف، الذي ينسج الذهب من القش للفتاة ابنة الطحان؟ لقد اشترط عليها ان يأخذ مقابل ذلك أول طفل تلده اذا هي لم تستطع أن تعرف اسمه؟ اننا نلتقي في القصة مع زوجات أب، وساحرات، وعمالقة وغيلان: اننا هنا في عالم الكبار، والبطوله ليست معقودة لطفل او طفلة، والنغمة مختلفة، فالاب في القصة طحان له تطلعاته الطبقية، اذ يريد أن يزوج ابنته من الملك، وهذا بدوره يريد ان يتزوجها لقدرتها على تحويل القش الى ذهب!، دون اي اعتبار لمشاعرها وعواطفها.. هي لاتحب الملك ولاتكنبزهه.. ثم هذه الشخصية الغريبة الرجل الصغير الذي يساعد الفتاة في

صنع الذهب ويساومها على مولدها الأول وعندما يعود ليستوفي حقوقه لايجد امامه الا الغش والخديعة مع أنه أظهر اللمحة الانسانية الوحيدة في القصة حين نزل في مساومته عن حقه مقابل معرفة اسمه وتبقى مشاعرنا الطبيعية وتعاطفنا مع الام الصغيرة، لكن ذلك لاينفى ان القزم قد خسر صفقته ـ ويبقى الهدف الاخلاقي هنا غامضا، غير واضح . . لماذا؟! نحن هنا نتعامل مع عالم الكبار . بظلاله الرمادية، واللعب على الحبال، لكن الامر لايذهب ابعد مدى من ذلك، فان هذه الشخصية الغامضه تقتحم الحياة اليومية في عالمنا وقد استرحنا لهزيمتها في القصة . كما هزم شيلوك في تاجر البندقية . . هل لان كلا منهما قدد تجاوز المدى فيما يطلب؟ . . ثم من هذه الشخصية الغامضة، ذات الاسم الغريب، والتي تظهر فجأة داخل الغرف المغلقة، وتقوم بأعمال خارقة تفوق قدرة البشر؟، ولكنه في مقابل ذلك يطلب أغلى شيء في الوجود من الفتاة!، ثم هو يمضي مردداً اسمه متغنيا به مبتهجا بانتصاره . . وهو بعد أن يمني بالهزيمة يضرب الارض بأقدامه، واذا به يسقط الى الاعماق، الى أين؟! . . الى بيته!، الى حيث

كان، ومن حيث جاء . . والمعروف من خلال التراث الشعبي اننا لانعرف اسم الشيطان، واننا اذا عرفنا اسمه استطعنا ان نهزمه، ويشعر الجميع بارتياح عميق عندما يفشل في الحصول على حقه - هل هذا جزاء عادل؟، ربما لا، لكننا لانبحث عن العدل حين نتعامل مع الشيطان، وعندما يتعلق الامر بفلذات الاكباد . . اي اننا امام «فاوست» اخرى، وشيلوك آخر، مع نهاية سعيدة.

وحكايات «الشياطين» و«الاشرار» تلقى اهتماما من الاطفال، وكثيرا مانجدهم متعاطفين مع هذه الشّخصيات، لذلك لابد من الحذر الشديد اثناء تناول هذه الاعمال وخلال اعادة صياغتها بالشكل الذي يمنعهم، دون ان يحمل اليهم الاعجاب بالاشرار واعمالهم . .

والسؤال الان: هل نستطيع ان نقول ان هذه الحكايات الشعبية ليست في حقيقة الامر قصصا للاطفال، وانها في واقع الامر اعمال فلسفية تحمل في ثناياها حكمة البشرية، وتعبر بشكل اسطوري عن مسيرة الانسانية بصدق واضح؟!. اعتقد ان الاجابة هي: نعم . . لكن ذلك لايعني ابدا انها لاتصلح للاطفال

وبعيدة عنهم، ولعل ذلك يدفعنا الى القول انه بات من الضروري الاّ نتدخل في هذه الاعمال، نبسط فيها، ونجهّل منها، حتى لاتجرح عقولهم الغَضّة ومشاعرهم البريئة.. اما أن نقدمها.. اما افتراسها بحجة تنقيتها من الشوائب فهو أمر يجب ألا نرتكبه، خاصة والأقلام التي تتناول هذه الحكايات لانظنها ترقى الى مستوى عبقرية الشعب الذي أبدعها.. ان الأطفال يتقبلونها حتى قبل أن يفهموها جيدا..

وقد أشرنا الى مثال واصح لهذا العبث بالادب الشعبي مع قصة صاحب المزمار وقد جعل الاحداث تجري في مصر الفرعونية.. وهذا الذي حدث جريمه في حق التاريخ وفي حق الادب الشعبي، الذي تجري حكاياته في اللازمان واللامكان: كان فيه زمان، لااكثر وبلا تحديد لعصر او عهد.. ودون اشارة الى أين حدث هذا، لكنه اللاوعي بالتاريخ والحكاية الشعبية..

ولايتوهم احد انني اطالب هنا بان نحكي قصة زوجة الاب التي ذبحت ابن زوجها وطبخته، أو..، او..، اذ مامن شيء يدفعنا الى زرع الرعب والفزع في نفوس الاطفال.. ولدينا كنوز وفيرة يجدر بنا ان ننتقي جواهرها الثمينة.

الحكايات الشعبية لاجدوى منها بالنسبة للاطفال هل يتقبلونها لان الكبار يفرضونها عليهم؟!

شغل الناس في السنوات الاخيرة بالادب الشعبي وحكاياته، وقد وجه البعض كثيرا من تلك الحكايات الى الاطفال على اساس انها تنتمي اليهم، وينتمون اليها، وتحيز لها هذا البعض، بينما رفضها آخرون بعنف . .

وسؤال يطرح نفسه:

ـ هل نحن معها ام ضدها؟

ان علينا أن نسمع وجهتي النظر لنقرر، اذ ان حماسة الطرفين عارمة، واصواتهما عالية، ويجدر بنا ألا نستسلم لرأي، بل لابد من الدراسة والتمحيص لكي نخرج بالرأي السليم، والقرار السوي، فان اطفالنا يجب ألا يكونوا فئران تجارب . . واذا كانت هناك اجيال من الكتاب راحت تقدم للاطفال مانقلته عن الغرب، فمن الضروري ان تتوقف أجيالنا عند هذا النقل، وتوجه اليه النقد، فتنصفه أو ترفضه وفق معايير ومقاييس علمية، وثمرة دراسة جادة متعمقه . .

ترى ماذا يمكن ان يقول خصوم الادب الشعبي وحكاياته؟! . . هم يقولون الكثير، خاصة وهم يرون ان المهتمين بالفلكلور قد بالغوا في قيمته وقدرة . . هم يتساءلون: ترى، هل انسقنا وراء الذين ينادون بان الادب الشعبي تراث انساني، بلا مثيل، وان المبدعين مهما حققوا من نجاحات فلن يقدروا ولن يستطيعوا ان يجاروه؟! وبذات الاسلوب؟، وهي بذلك لن تزيد على ان تكون تقليدا ومحاكاة؟! . .

ان البعض يرون في الحكايات الشعبية مادة سيئة للاطفال، مليئة بالاحداث المفزعة والشخصيات المرعبة، التي تهدد أمنهم الداخلي، وتشعرهم بعدم الاطمئنان الى هذا العالم، اذ يتربص الذئب للرداء الاحمر، ويقسو الساحر على علاء الدين، ويحاول الغول أن يأكل جاك، ويسجن علي بابا في المغارة لانه نسي عبارة افتح ياسمسم . ثم لماذا هذا التراث القديم؟ أليس لدينا جديد مبدع، ومؤلف، يمتع الاطفال ويفتح أعينهم على الخير والحق والجمال؟ . . ثم هل يصدقون هذه الخزعبلات حين نلقيها في آذانهم؟ ماجدواها وهم يكذبونها، ويرونها مختلفه، لم تحدث،

ولن تحدث؟ . . ثم ان الكثير منها ـ وبالذات الفبيولات ـ مليئة بالوعظ والارشاد، وهي امور لايتقبلها طفل اليوم، وينفر منها، ويضيق بمغزاها، ويراها «تربويه» أكثر مما يجب وأكثر مما يحتمل! . . انها لاتقنعه، لانها لاتريد له أن يستخدم عقله في الحكم على الاشياء، وتبين ماهو سوي سليم منها، وماهو خطأ يجب تجنبه . . وهم لايرغبون في مسايرة تيار الفولكلوريين في حماستهم الشديدة للحكايات الشعبية، فهناك تيار آخر يقوده بعض علماء النفس والكتاب والادباء، والآباء له موقف يستحق أن تبينه وان نوضحه . . احتراما له من جانب، وبحثا عن الحقيقة من جانب آخر. ولعل أهم ماكتب في هذا المجال ماأورده «توكلين» في دراسة له كتبها في منتصف الستينات، وكانت لها اصداؤها الواسعة . . والرجل واحد من اكبر كتّاب الاطفال العالميين، والرأي الذي اعلنه تبناه البعض في أوربا وأمريكا، وأصبح تيارا يعارض تقديم القصص الشعبي للاطفال . .

وفي واحدة من حلقات الدراسة التي عقدتها هيئة الكتاب المصرية عام ١٩٧٧ طرحت د. كارلا بوازييه ـ المسئولة عن معرض كتب الاطفال في بولونيا في ذلك

الحين ـ هذه القضية، وطالبتنا نحن العرب بصفتنا أصحاب أكبر رصيد من الحكايات الشعبية أن ندلى رأينا، وناشدتنا رأيا قاطعا في المسألة . . ويومها طالبنا مسئوول بهيئة الكتاب ألا نعقب، تصورا منه انها بعيدة عن مجال بحثنا ودراستنا . . ولكنني تصديت للموضوع، رداً [illegible] آراء [illegible] الحكايات الشعبية، وهي لاتخرج عما قاله تولكين في إضافة في دراسته التي نورد أهم نقاطها. ونعقب عليها . . والحق ان بعض ماصدر في بلادنا من قصص شعبي ـ وبالذات ماكتبه المرحوم محمد عطيه الابراشي ـ يجعلنا مع تولكين في بعض مما قاله، كما اننا نختلف مع البعض الآخر من أفكاره . .

آراء تولكين

ضد الحكاية الشعبية والخرافية

ترى ماهي قيمة الحكايات الشعبية ـ اذا كانت لها يمة ـ وماهي مهامها وماهو دورها في عصرنا هذا والعصور الماضية؟ . . الكثيرون يربطون بينها وبين الاطفال ويرونهم جمهورها، اما الكبار فانهم يقرأونها فقط للاستمتاع بها . . والسؤال: ماهي الصلة الحقيقية والاساسية مابين الاطفال والحكايات الشعبية؟ . . ثم هل يقرأ الكبار حقا هذه القصص بهدف المتعة؟ . . ولسنا نعني بذلك هؤلاء الذين يقرأونها للبحث والدراسة . . فان مجالات البحث قد اتسعت وتنوعت ووصلت الى كل شيء . .

ان البعض يربط بين الحكاية الشعبية وعقول الاطفال، كما يربط بين اجسامهم وبين اللبن . . وفيما يرى «تولكين» ان هذا خطأ، ناجم عن سبب خاص أو آخر . . (قد يكون طفوليا)، وربما يرجع ذلك الى أنهم يتصورون الاطفال نوعا آخر من المخلوقات من جنس

مختلف، وليسوا بشرا عاديين، لم ينضجوا بعد، وان كانوا اعضاء في اسرة الانسانية . .

والربط بين القصص الشعبي والاطفال في الواقع حدث في التاريخ القريب والبعيد، وان كان في العصر الحديث قد أصبح يشار اليه على أنه ذو صلة مباشرة باطفال الرياض، في سن ماقبل المدرسة، لسبب اساسي ورئيسي هو أن الكبار ماعادوا بحاجة اليه، ولايهمهم كثيرا ان يفقدوه ويتخلصوا منه . . لكن ماأبقاه على قيد الحياة هو ان الاسر الثرية كانت تستخدم مربيات عجائز للابناء، ولديهن رصيد من هذا القصص القديم يحكينه للاطفال، وقد بدأ هذا الرصيد ينضب في انجلترا، ومرة اخرى لايرى تولكين ان هناك دليلا على ان الاطفال هم جمهورها، اذ لايختارون لأنفسهم هذه الحكايات وهم في دور الحضانة والرياض ـ اللهم الا لقلة خبرتهم وعدم نضجهم ـ لايحبون الحكايات الشعبية، ولايفهمونها، مثلهم في ذلك مثل الكبار. . ان الصغار ينمون ويكبرون، ولديهم شهية مفتوحة لأشياء كثيرة، قد تكون من بينها هذه الحكايات، والحقيقة ان بعضهم وبعض الكبار ـ فقط ـ يميلون اليها، وعندما

يحصلون عليها لاتستحوذ عليهم، ولاهي ضرورية بالنسبة لهم. . انه مجرد تذوق، لااكثر ولا أقل. . وكثيرون «يعدّون» هذه الحكايات من اجل الاطفال، وهي عملية خطيرة حتى لوكانت ضرورية. . والذي ينقذها من الدمار هو ان الفنون والعلوم ليست عموما من الامور التي نتجه بها الى اطفال الحضانة والرياض، وهم فيها وفي المدارس يحصلون عليها لأن الكبار يريدون ذلك، وهو رأي ليس بسليم في كل الاحوال. . ان الحكايات الشعبية تقتطع من عالم الكبار فنهم، وتودع حجرات رياض الاطفال، لتفسد كما يحدث لو اننا تركنا شيئا هاما (ميكرسكوب مثلا) مهملا في هذه الحجرات، ولا نلوم الا أنفسنا اذا انكسر أو فسد. . وأراها فعلا قد هجرت، ونفيت، وانتهت. .

ونحن لن نعرف ـ فيما يرى تولكين ـ قيمة الحكايات الشعبية اذا ماتصورنا انها خاصة بالاطفال بالذات وبالتحديد. . ان مجموعات الحكايات الشعبية اقرب الى الغرف التي توضع فيها الاشياء القديمة بلا ترتيب ليلعب بها الاطفال. . ومضمونها مضطرب، لايتجاوز حفنه من الاهداف والاخلاقيات وان كنا لانعدم فيها شيئا

له قيمـــة حقيقيــة : مثـل قطعـة فنيـة قديمـة لم تتحطم بالكامل، وأن كنا ذات لحظة قد نعتبرها من سقط المتاع . .

هل الحكايات الشعبية تمثل طفولة الانسان؟

ونـــرى ان اعمـال انـدرولانـج ليست من هذا اللون القـديم الـذي يلقى به ليلعب به الاطفـال، انهـا اعمال ذات قيمة حقيقية وان كان التراب قد علاها، وماعلينا الا ان ننفضـه عنهـ ونجلوهـا لتبـدو على حقيقتها شيئا ثمينا غاليـا، له قيمتـه، انها في الحقيقة ثمرة دراسة للأساطير والحكـايـات القـديمـة، ومـع ذلك تقدم على انها كتب للاطفـال، وقد ننظر بعين الاعتبار الى بعض ماقاله لانج في هذا الصدد. . انه يقول ان «هذه القصص تمثل في حقيقتهـا طفـولـة الانسـان حين كانت شهيتـه مفتـوحـة للمعجــزات ولـديـه قدر غير قليـل من المعتقـدات. . والسؤال الـــذي يطـــرحـــه الاطفـــال دائمـــا بعـــد هذه الحكايات: هل حدثت؟ هل هي قصة حقيقية؟»

ولايرى تولكين ان هذه الشهية المفتوحة للمعجزات والخـوارق والايمـان بها مبرر لكي نروي هذه الحكايات للاطفــال لانهم سذج، سريعـو التصـديق لكـل شيء، وتعوزهـم الخبرة والتجربة، ولذلك فانهم يخلطون مابين

الحقيقة والخيال، بينما لابد للانسان الناضج من ان يكون قادرا على التفرقه، والفرز بينهما . . نعم، ان الاطفال قادرون على الاندماج في القصص الشعبي ومتابعتها وتصديقها اذا كان الراوي مقنعا، وقادرا على ان يخلق عالما جديدا، يدخل الاطفال اليه، وما يحدث بداخله حقيقي وصادق، ويقع وفق قوانين ذلك العالم طالما نحن فيه، وتبدأ لحظة الشك وعدم التصديق مع خروجنا من هذا العالم، ومع زوال السحر الخاص به . انتهت التعويذة، أو بالاحرى فشل الفن، وعدنا للحياة الطبيعية، ورحنا ننظر من الخارج الى الحكاية . . كما نشاهد مسرحية أو مباراة كرة القدم : المتحمسون يعيشون معها بالكامل، والبعض يتطلع اليها بدون اكتراث . . وعندما تنتهي تبقى بعض آثارها لدى الذين عايشوها، بينما ينفض الآخرون ايديهم منها . . قد تطول معايشة البعض للحكاية الشعبية بسبب ظروف خاصة أو بفضل ذكريات الطفولة، لذلك يتصورون ان الاطفال سوف يحبون هذه الحكايات، لكن اذا كانوا قد احبوها بحق، لذاتها، فانهم ماكانوا ليتشككوا فيها، ولكانوا صدقوها .

وفي تصور تولكين ان الكبار ينخدعون ازاء سذاجة الصغار وقلة خبرتهم وتواضع قدراتهم النقدية، وضعف محصولهم اللغوي، ونهمهم الناجم عن سرعة نموهم، لذلك يحاولون ان يحبوا مايقدم لهم.. واذا هم لم يحبوه فانهم لايستطيعون التعبير عن ذلك أوتبرير عدم الحب واعطاء اسبابه، والحقيقة انهم يحبون أشياء كثيرة، كثيرة جدا، ومتنوعة، دون ان يكلفوا انفسهم عناء تحليل هذا الامر.. ولسنا ندري اذا ماكان تأثير الحكايات الشعبية على الاطفال واجتذابها لهم سوف يقل ويضعف كنتيجة لتكرارها ام انه يزيد.. والسؤال الذي يتكرر (هل هي حكاية حقيقية؟ هل حصلت؟!) يجدر بنا ـ كما يقول اندرولانج ـ الا نجيب عليه بسرعة وبلا مبالاه، لايدل بالضرورة على عدم التصديق او الرغبة في ذلك لكنه ينبع عادة من احتياجهم الى مزيد من التعرف على الحياة، لان قلة خبرتهم بها تجعلهم غير قادرين على «الحكم» و«التقييم» فيضطربون مابين الخيال والغريب وغير المعقول، وذلك الجانب الواضح فقط للكبار والآباء والذي يحتاج الطفل الى ارتياده، غير انهم قد يميزون بين هذه الامور، وقد يحبونها كلها في

نفســه . والحـدود بينهــا قد لاتكون واضحة ، الا ان ذلك ليس قاصـرا فقـط على الاطفـال . . اننـا نعـرف الفروق بينهـا ، ولكننـا لانعرف الخانه الصحيحة التي نضع فيها ذلـك الـذي نسمعـه ان الطفل قد يصدق ان هناك بعض العفــاريت في مكــان ما ، وهنــاك عدد من الكبـــار قد يتصورونها موجودة في مكان أبعد ، أو في كواكب اخرى . .

الطفل بين التصديق والمعرفة

لقد نشر اندرولانج الحكايات الشعبية التي جمعها في فترة كانت هذه الحكايات تعادل الاعمال الروائية للكبار، وقال ان مذاقها لدى أطفال عصرنا هو مذاقها ذاته لدى أجدادهم الذين كانوا عرايا قبل مئات السنين، وكان من الواضح انهم يحبون هذه الحكايات أكثر مما يحبون: التاريخ والجغرافيا والشعر والحساب.. قال لانج هذا في كتابه البنفسجي، لكن السؤال الذي يتبادر للاذهان: هل نعرف حقا اجدادنا هؤلاء؟.. لعل الشيء الوحيد الذي نعرفه عنهم انهم لم يكونوا عرايا، فمنذ عصر مصر القديمة والانسان يعرف الثياب، بل ويتأنق في لبسها، ولاشك ان الحكايات الشعبية التي نسمعها تختلف كثيرا عن تلك التس سمعوها، اوعلى الاقل ليست هي بالذات، واذا افترضنا ان لدينا الحكايات عينها لأنها كانت عندهم، فلابد ان مانعرفه من تاريخ وجغرافيا وشعر وحساب بقى لأنهم احبوه، ولم يهملوه.. ومما لاشك فيه ان اندرولانج يتحدث عن لون من الاطفال، اولعله لم يكن يعرف حقيقة أمزجتهم، وهذا

التعميم الـذي قال به قد لاينطبق على الاطفـال خارج الجـزيـرة البـريطـانيـة ، اذ هو يعزف لهـم كطبقة ، مغفلا الفـروق الفردية والبيئية ، وأساليب تعليمهم وتربيتهم . . ان بعض الاطفـال ماكـانـوا يتطلعـون الى تصـديق الحكـايـات بقـدر لهفتهم الشـديـدة الى «المعـرفـة» و «المعلومـة» يدفعهم الى ذلـك حب استطـلاع كامن في نفوسهـم ، فالتصديق وعدمه يرجع الى الطريقة التي تقدم بهـا الـقصص بواسطـة الكبـار او عن طريق الكتـاب والمؤلفين ولسنا نتصور ان تكون كل المتعة التي تأتى بها هذه القصص ترجع فقط او تعتمد على صدقها او امكانية حدوثها او حدوثها فعلا في واقع الحياة . . ان الحكايات الخـرافيـة والشعبيـة لاتعنى بمسألة «الامكانية» حسب ، لكنهـا تهتم بالـرغبات والامنيات والآمال فاذا مااستثارت في النفـوس «الـرغبـة» نجحت وحققت اهـدافهـا ، فالكثيـرون من الاطفـال لايـرغبون في احلام «اليس في بلاد العجـائب» أو مغـامراتها ، انها تد اعجبهم لاأكثر ولا أقـل ، وتسليهم ، كمـا ان البعض لايستهـوزيهم البحث عن الكنـز أو محـاربـة القـراصنـة ، وربمـا ضاق البعض بجـزيـرة الكنز . . روبرت لويس ستيفنسون ـ واستقبلوها

في برود. . في حين استهـوتهم قصص الهنـود الحمـر والـرغبة الكامنة في اطلاق الاسهم واستخدام اللهجات الغريبة واللغات العجيبه، وتقليد حياتهم البدائية. . كما ان البعض استهـوتـه حكايات التنين أو الديناصور، فهي تعيش في بلاد أخرى، بعيدة، وليس من المتوقع أبدا أن تأتي اليهم حيث هم، ومن أجـل ذلـك يسأل الاطفـال: «هـل هذه القصـة حقيقيـة؟». . وهم يقصـدون انهم استمتعـوا بالقصة؛ لكن هي معاصرة؟ هل أنا آمن حيث أنـا؟ . . وكـل مايرغبون في سماعه انه ليس هناك تنين او دينارصور الآن. . وبذلك تطمئن نفوسهم، ويقرأون هذه القصص بلا خوف أو فزع. . .

ولقـد أصبحت الحكـايات الشعبيـة والخرافية ـ في رأي تولكين ـ لونـا من الـوان الادب المعلب، شأنها في ذلـك شأن الأطعمـه المحفوظـة، وكميـات كبيـرة تنتج منهـا، وتخزن، وسوف يأتي وقت يستهلكها فيه الاطفال لكثـرة المعـروض منها، ولضعف خاص ينتاب الاطفال ازاء خيـالاتهـا والـوانها واخراجها الجذاب، ومما لاشك فيـه ان هذا الكم الـرهيب من تلك الحكـايات قد أغلق البـاب في وجه عمليات الابداع لقصص مؤلفه خصيصا

لمواجهة متطلبات مراحل العمر المختلفة للاطفال والاحتياجات النفسية والعقليه والوجدانية . . هناك محاولات دؤوب لاعادة (طبخها) وتقديمها في اطباق تبدو معها جديدة، وتقليد الحكايات الشعبية والكتابه على نفس نسقها لا يقل عنها سوءا، فأصحابها يكتبونها وعين على الاطفال والأخرى على الكبار، كذلك الذي يروي حكاية للاطفال وآبائهم بجلسون في الصفوف الخلفية، وهو بين حين وآخر يتطلع اليهم مبتسما منتصرا عبر رؤوس الصغار من امامه، وكأنه يقول للكبار:

ـ ألست رائعا، وساحرا، فيما أحكيه وأرويه؟

انه يتوجه الى الكبار يريد ان يجتذب انظارهم، ويرضيهم، مدركا تمام الادراك أن الاطفال لايعنيهم كثيرا مايقوله . . وقد يكون «اندرولانج» مصيبا في قوله (ان هؤلاء الذين يريدون ان يدخلوا عالم الحكاية الشعبية والخرافية لابد وان يمتلكوا قلب طفل)، اذ ان ذلك لابد منه في كل حكايات المغامرات . . لكن التواضع والبراءة لايتحتم معها الرضا كل الرضا عما يجري من احداث في هذه القصص، اذ كثيرا مايحاول الكبار ان يتجهوا ناحية الرحمة على حساب العدل،

بينما يرفض الاطفال ذلك، ايمانا منهم ـ كقلوب طيبة ـ بانه لاتسامح مطلقا في امور العدالة، ويجب ألا تأخذ بالخارجين عليها اية شفقة. . لكن الكثيرين يقدمون هذه الاعمال التي ترضى الكبار لكي يقدموها بدورهم الى الاطفال، ولكي يشتروها من اجلهم، ومما لاشك فيه ان الكبار هم الذين صنفوا الحكايات الشعبية على انها تنتمي الى الاطفال، وهم الذين حاولوا تحبيبها لهم

والحقيقة انه يجدر بنا ان نلحظ أن الاطفال وهم يكبرون يجب الا تكبر معهم سيئاتهم: هذه الرحلة يجب أن يقطعوها دون ان يفقدوا البراءة والقدرة على ابداء الدهشة، ودون ان يبسط الخوف اجنحته عليهم، والرحلة وصولا الى المراهقه والشباب يجب أن تكون حافله بكل مايثرى عقولهم ووجدانهم، ولاتظن ان الحكايات الشعبية المليئة بالخزعبلان قادرة على ان تصنع هذا، كما يرى تولكين. . وهويرى ان الكبار يكتشفون ابعادها اكثر مما يفعل الاطفال، فضلا عن تأثرهم بها، ومعايشتهم لها. . اما الصغار فيجدر بهم ان يقرأوا اعمالا كبيرة، طويلة، فحكاياتهم وقصصهم لابد وان تكون مثل ثيابهم: تسمح لهم بالنمو. . .

ماذا نرى في آراء تولكين ورافضي الحكاية الشعبية للاطفال؟

ونحن نرى ان الاطفال بشر، فقط هم في طريقهم للنضج ، ولهم ميولهم ورغباتهم واحتياجاتهم ، فاذا ماتطابقت مع الحكاية ، فلماذا نحرمهم منها؟ ، ثم من قال انها كاللبن لطفل الحضانه والرياض؟!. . هي مجرد لون من الوان «التغذيه» العقلية والوجدانيه ، ان تقبلها الطفل كان بها، واذا ماعافتها نفسه ، فليس من الضروري أن نغضبه عليها . . ومن ملاحظتنا نجد ان الاغلبية ترتضيها ، بل وتحبها ، وليس ذلك لان الكبار انصرفوا عنها ، وسماعا من الاذاعة ، ومشاهدة خلال التليفزيون ـ تؤكد ان الكبار مازالوا يتعلقون بهذه الحكايات ، ويطربون لها ويستمتعون بها ، ولعلهم لايريدون أن يستأثروا بهذه المتعة ، ولايرغبون في ان يؤجلوها بالنسبة للصغار، فيقدمونها اليهم في اطباق جديدة، ملونه، شهية. .

ولقد انقرضت المربيات ، وكذلك العجائز الذين

كانوا يحكون للصغار هذه الحكايات، واستعاض الاطفال عنهم بالتليفزيون والاذاعة، والمجلة، والكتاب، والمادة الشعبية المقدمة من خلال هذه الاجهزة الحديثه - التي قد يتناقض وجودها ذاته مع خرافات الحكاية الشعبيه - الا اننا نلحظ ان تلك الحكاية اضافة كبيرة وجاذبه للطفل عبر هده الاجهزة . .

وليس ذلك لغياب الروح النقدية عند الطفل، فهو ناقد شديد الحساسية، وهو يعبر عن الرضا على الشيء بالاقبال عليه، ويعبر عن رفضه له بالانصراف عنه، وماهو بحاجة الى ان يكتب مثالا نقديا ليؤكد به انه «ناقد» ولديه نظرياته ومعاييره ومقاييسه . .

والكبار - حتى في محاولة الفرض - قد يجدون الكثير يريدون ان يصلوا به الى الاطفال، مثل المواد التعليمية، والوعظية، والآباء يعرفون ان هذه احتياجات، لكنهم اذا لم يراعوا الميول والرغبات انصرف عنهم الاطفال . .

والحكاية الشعبية في تقديرنا ضفيرة طيبه من الرغبة والاحتياج : فهي ممتعه ومثيرة، وهي في ذات الوقت ضرورة لصقل وجدانهم، وتفتيح عقولهم، والكشف عن جوانب عديدة من الحياة التي نحياها . .

ويبـدو ان تولكين مفتـون بالتشبيهـات التي قد تكون ممتعـه، لكنها في الوقت نفسه قد لاتكون مقنعه. . لقد شبـه الحكـايـات الشعبيـة بلبن الاطفـال، ثم شبهها بالاشيـاء القـديمـة التي تترك فيعبثون بها، ووجد تماثلا بينهـا وبين القطـع الفنيـة المكسـورة، واخيـرا يريـدهـا فضفـاضـه واسعـه ـ كالثيـاب ـ لتسمح لهم بالنمو. . قد تتفق معـه في بعض أفكاره، ولكن: من قال ان الاطفال سريعـو التصـديق؟ لماذا يسألون اذن: هل حصلت هذه الحكاية؟. . اما عن خروجهم من الحكاية بعد سماعها أو مشـاهـدتهـا او قراءتهـا فهـو أمـر طبيعي، وهـم ليسـوا مطـالبين بأن يبقـوا معهـا ابـدا الـدهـر، هي تترك لديهم انطباعات ـ سواء كانت عملا شعبيا أو مؤلفا ـ يبقى بعض الوقت: قد يطول اذا اندمجوا في القصة وتأثروا بها تأثرا شديـدا، والا فانهم ينفضـونها عنهم، ويواصلوا حياتهم المعتـادة، وربمـا عادوا للحكـايـة أو أبطـالهـا بين حين وآخـر، لسبب اولآخـر، لكن ذلك لايعني أنها ستترسب بالكامل في عقولهم ووجداناتهم. .

وإذا كان الاطفـال يخلطـون بين الحقيقـة والخيال، فذلـك ـ أيضـا ـ أمـر يحـدث مع الحكـايـة الشعبية ومع

غيرها. . والشيء ذاته ينطبق على التعميم فيما يتعلق بالاطفال، والفروق البيئية والفردية بينهم. . ولسنا ندري لماذا جعل نفسه نموذجا لما يحبه الاطفال أو لا يحبونه، فمن الواضح انه كان ذا مزاج خاص به، ولا يمكن تعميمه. .

وبعد. . .

أن مقالا، اودراسة، أوبحثا لا يمكن بأي حال أن تحسم بالكامل هذه القضية: هل الحكايات الشعبية صالحه للكبار فقط، ام للكبار والاطفال معا؟ هل هي حقا تنتمي الى عالم الطفولة، وهل تمثل بصدق طفولة الانسان، لذلك هي صالحة للاطفال؟

الآراء تختلف وتتباين، ولابد وان نستمع اليها. . وقد رددت على د. كارلا بوازييه باننا لم نكتف بالحكايه الشعبية، واعادة صياغتها، بل ان فاروق خورشيد اتخذ من شخصية سيف بن ذي يزن بطلا لعمل مؤلف بالكامل، كما اننا في بعض الاحيان قد قدمنا اعمالا فيها مواجهة لهذا التراث ورد عليه، وان شرقنا يؤمن، وسيظل يؤمن بالحكاية الشعبية مادة وزادا للكبار والاطفال على السواء.

السير الشعبية وآدب الاطفال

في أوائل السبعينات كنت في زيارة الى بلغاريا، واستقبلني مسئول الثقافه، واستهل حديثه بان الثقافه في بلاده تبدأ من منطلقين اساسيين:

الاول: محو الامية، لكي يقرأ كل الناس..

الثاني: الفن الشعبي لانه يخاطب جميع الناس، ويتجه للوجدان مباشرة، دون حاجة الى خلفية ثقافية..

لذلك فان لديهم في بلغاريا ١٢ ألف فرقة فنون شعبية!، وراجعته في الرقم متصورا انه عدد الراقصين والمغنين والكورس مثلا، اذ أن شعب بلغاريا نحو ٨ مليون.. لكنه أكد صحة الرقم، قائلا انه تحت كل بلاطة عندهم توجد فرقة فنون شعبية بل كلما اجتمع ثلاثة أشخاص كونوا فرقة، لان الشعب الذي يغني ويرقص هو الشعب الذي يعمل وينتج.. وأضاف: اني اعرف ان لديكم تراثا رائعا، وصل الينا منه «ألف ليلة»، ولكم نتطلع الى قراءة «السِّيَر»، بعد ان قرأنا عنها الكثير، مما بهرنا.. نحن نريدها لأطفالنا!.. الطريف انه عندما نطق كلمة «سير» بالانجليزية انني سألته عن معناها!!

محاولة لتوحيد وتحديد المصطلحات

«السير. الشعبية. و. ادب. الاطفال»
كلمات أربع، تتوسطها «واو العطف»، وتحتاج كل كلمة منها الى رقفه قصيرة، يجب ألا تطول..

السير - جمع سيرة - وتعني ترجمة حياة انسان أو أكثر، وقد يكتبها صاحبها فتصبح ذاتيه، وقد يكتبها مؤرخ أو أديب في شكل قصصي أو روائي..

وحين تصبح «السير شعبية»، نراها لونا من الادب له شخصيته المتفرده، وهي السير الغربية، ولاشيء آخر، هي ذات الكلمة، بكل لغات العالم، لذلك نعتز بها ونفخر، اذ لاوجود لها في غير أدبنا..

أما الادب فلن ننساق وراء تعريفاته: هل هو الكلام الجيد المفيد من الشعر أو النثر؟ أم هو تعبير عن وقع الوجود على الوجدان بالكلمه؟ أو هو تعبير عن ذات الكاتب أم هو معادل موضوعي للاحساس الذي يرغب

---

* عن بحث قدّم في مؤتمر السير الشعبية الذي عقدته كلية الاداب جامعة القاهرة بالتعاون مع مركز حضارة حوض البحر الابيض بباريس.. (عام ١٩٨٥)

في التعبير عنه؟ . . أيا كان الامر فهو الكلمة مصاغة في قالب له مواصفاته شكلا ومضمونا . . .

وعندما تضاف كلمة «الاطفال» للادب، تضاف معها مواصفات جديدة مثل مراعاة مراحل اعمارهم، وميولهم واحتياجاتهم، وقواميسهم اللغوية، لكي يجدوا فيه المتعة العقلية والعاطفية . .

وقد سقنا هذه المقدمة في محاولة لتحديد المصطلحات وتوحيدها حتى نتكلم لغة واحدة، وحين نذكر «السير الشعبية» فاننا لانعني بها غير ماسبق، ولانخرج بها عن هذا الاطار، فالحديث لن يكون عن الملاحم، أو السير التاريخيه، أو الذاتية، بل سيقتصر على ذلك التراث الرائع من السير الشعبية العربية، مثل «سيرة عنترة»، و«سيف بن ذي يزن» . . وعندما نعرض لادب الاطفال نقصد ذلك الادب الذي نتجه به اليهم، اما مايكتبونه هم فلا يتجاوز محاولات للتعبير والتدريب ليست داخل نطاق اهتمامنا هنا . . ولقد عاش الاطفال في مجال الادب عالة على مائدة الكبار طويلا، قبل هانز اندرسون، ولم يتحقق لهم أدب مؤلف ومكتوب من اجلهم الا على يديه، ومنذ فترة لاتتجاوز قرنا ونصف

القـرن . . وان كان تراث الانسـانيـة من الادب الشفاهي كثير ورائع .

ولقـد تأثـر أدب الاطفـال العالمي بأدبنا الشعبي تأثرا كبيـرا، وممـا لاشـك فيـه ان هانـز اندرسون قد نقل عن «الف ليلة» وتأثـر بهـا، ومـا من طفـل في العـالم الا وقرأ «علي بابـا والاربعين حرامي»، بل ان عبارتـه الشهيـرة «افتح ياسمسم» قد صارت عنوانا لأشهر وأطول مسلسل تليفـزيـوني، لطفـل ماقبـل المدرسة، وحلقاته تجاوزت الالفين، وكل منها في ساعة كاملة . . كما ان كل اطفال الـدينا يعرفون مغامرات السندباد، وعشرات من الكتاب الغربيين قلدوها . . اما «علاء الدين ومصباحه السحري» فقـد فتنت قراءهــا، واستمتعــوا بهــا كثيرا من خلال الكتـاب، والفيلم على الشاشتين: الكبيرة والصغيرة . . وعرف الاطفال شهريار وشهرزاد، ولص بغداد، والشاطر حسن و«أبـو صيـر وابو قير»، وغيرها . . بل يقطع كثيرون بان دانيـل ايفـوفي قصتـه الشهيرة «روبنسون كروزو» قد تأثر كثيرا بابن طفيل في «حي بن يقظان» . . وامتد التأثر بأدبنــا حين قدمــوا الى بلادنـا ـ تحت اسم الصليبيين ـ وسمعـوا السيـر الشعبيـة من الـرواة، فراحوا يقلدونها في

قصص «الملك آرثر» و «روبن هود» وغيرها مما نسجوه على منوال سيرنا.

ونحن نحس ان هناك قصورا وتقصيرا في مجال ادب الاطفال العرب ازاء الادب الشعبي عامة، وازاء السير خاصة، فان ماجُمِعَ ونشر لهم من قصصنا العربي والسير قليل الى حد كبير، وسنحاول الآن ان نحصى ماجرى في مجال السير، كي نتبين مسيس حاجتنا للمزيد، في مواجهة المترجم من القصص الشعبي العالمي الذي يحمل الكثير من قيم لانرتضيها في «المكتبة الخضراء واعمال عطية الابراشي».

ماذا قدمنا من «السير» للاطفال العرب؟!

ولقد بذلت محاولات لتقريب السير الشعبية للاطفال والناشئين، ابرزها ماقدمته دار المعارف قبل الستينات من خلال الاساتذة: حسن محمد جوهر، محمد احمد برانق، أمين احمد العطار، الذين أعادوا صياغة «الظاهر بيبرس» في ستة أجزاء (والاميرة ذات الهمة) في ثلاثة أجزاء وأبوزيد الهلالي في جزأين و«حمزة) في جزء واحد. . كما كتب الاستاذ فريد ابو حديد «ابو الفوارس عنترة بن شداد» وسيف بن ذي يزن في (الوعاء المرمري)، وكتب الاستاذ عباس خضر سيرة ذات الهمة في كتابين. . وكل هذه الاعمال لعمر يتجاوز الثانية عشرة.

وقدم فاروق خورشيد «عنترة» في مجلة «سمير» في الستينات، وكانت في شكل سيناريو وتتابع صورة في حلقات متسلسلة، وقد لقى يومها اهتماما كبيرا من جانب الاطفال وتابعت المجلة السير فنشرت الظاهر بيبرس ثم على الزيبق، وعاود فاروق خورشيد تقديم سيرة عنترة في كتب الهلال للاطفال لعمر يزيد على

العاشرة، ونُشر منها ـ حتى الآن كتابان ـ هما (مولد بطل) و (عبلة والصبي المقاتل)، وصداهما طيب الى حد كبير.

وهناك محاولات متناثرة من جانب ابراهيم شعراوي، اذ له اهتمامات كبيرة بالفن الشعبي، وأدب الاطفال، كما ان لي اكثر من محاولة في هذا الصدد اقدم نموذجا منها، نشرته مجلة (الفردوس)، (مثبت هذا النص في آخر هذا الفصل).

واعرف ان مشروعات عدة قد أعدّت لاعادة صياغة السير ونشرها بشكل افضل لاعمار اقل في (دار ثقافة الاطفال في بغداد)، بجانب تقدمه مجلة «المزمار» العراقية. كما ان «مجلة سمير» لها في هذا المجال اكثر من محاولة . .

وقد نشرت في بيروت بعض السير، اعدها الاستاذ عمر ابو النصر لكنني لاأظنها صالحة للاطفال، وربما يستطيع الشباب مطالعتها، واخراجها يؤكد ذلك فهي خالية تماما من الرسوم، كما ان عباراتها طويلة، والكثير من كلماتها يتجاوز قاموس الطفل. وللمرحوم محمد عبد الحليم عبد الله مسلسل تليفزيوني في سبع حلقات عن

على الزيبق ..

ومن الصعب حصر كل الاعمال التي تتناول السير الشعبية للاطفال في مجالات الكتب والمجلات، والاذاعة والتليفزيوني والمسرح، وما قدمناه هنا مجرد نماذج، تعني أن هناك توجها نحو السير، واهتماما بها . . بل ان هناك اعمالا كثيرة استوحيت منها واخذت عنها بشكل مباشرا وغيرمباشر، الامر الذي جعل من ابطال هذه السير معروفين للأطفال، وموضع اعجابهم .

وكان جميلا ان ياخذ فاروق خورشيد من شخصية سيف بن ذي يزن محورا لعمل ابداعي مؤلف، يحمل عنوان (مغامرات سيف بن ذي يزن)، وحاز عليها جائزة الدولة، ولكم تطلعت الى تبسيطها للاطفال، لانها عمل يتسم بالاصالة والمعاصرة معا .

قام الـدين ـ في كل مكان ـ بدور هام في تشجيع الفن الروائي، لان العقلية الدينية قد حاولت أن تتفهم البدايات، وراحت لعدة أجيال، تحكي قصص الكائنات المقدسة، وحكايات الأيام الغابرة، وقد لبست الأساطير أزياء القصص لتفسير الاحداث الطبيعية، أو لتفسير بعض الظواهر الانسانية كالاحلام، والتي كانت شيئا محيرا بالنسبة للشعوب البدائية . .

غير أن ذلك لم يحل بيننا وبين تقديم مجموعات من القصص الشعبي للاطفال مثل «عنق الزرافة وقصص اخرى»، (اذان لديك وقصص اخرى)، وتضمان قرابة ثلاثين قصة تدور حول التفاسير الأسطورية للظواهر، ايمانا بأن هذا اللون يوسع من خيال الطفل، وانه سوف يدرك حينما يكبر ان القصة كانت خيالية وخرافية، بعد ان تكون قد أدت دورها وقامت برسالتها في توسيع المدارك وزيادة القدرة التصورية لديهم، كما أنها تعمق احساسهم بالوجود والحياة والجمال، كما ان هذه التفاسير تلفت نظر الاطفال الى تلك الظواهر، الامر

الذي ينمي القدرة على الملاحظة . . وقد نصحت الاباء والمعلمين في المقدمة بالا يجيبوا على الاطفال اذا ماسألوهم :

«هل حدثت هذه القصة؟» . . فالاجابة بنعم غير صادقة، والاجابة : «لا» تفسد كل شيء - وتضيع علينا كل أهدافنا من القصة، لذلك سألتهم ان يتخلصوا من الرد بلباقة، وألا يزيدوا من توضيح المغزى فالقصص تصرخ به . .

والكتابان منشوران منذ العام الدولي للطفل - ١٩٧٩ - ولم يلقيا اعتراضا من علماء الدين، الامر الذي ندرك منه أنهم لايضيقون بها، وليسوا ضدها . .

لكن : ماذا عن السير الشعبية الدينية؟!

يقول د. فؤاد حسنين في كتابه «قصصنا الشعبي» . .

«كثرت هذه القصص في العصور الاسلامية الأولى حيث نجد قصة تحدثنا عن غزوة تبوك، كما نقرأ في كتاب آخر يتصل بفتح اليمن ويعرف برأس الغول وصفا لفتح تلك البلاد، وفيه يقوم «الامام علي» بدور البطل الاول . كذلك وصلتنا قصة حول فتح مكه واسمها (الدرة المكللة في فتح مكة المشرفة الممجدة)، ومن الجدير

بالذكر هنا أيضا ان موقف النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهــود ـ خاصــة يهــود خيبــر ـ وجـد صداه في القصص العـربي ، الا ان شخصيــة النبي حملت على شخصيات أخرى وابطال شعبيين مثل عنتر وأبي زيد الهلالي .

ونضيف انه قد وصلتنا كذلك قصة (سيرة الامام علي بن ابي طالب) ـ كرم الله وجهه ـ ومحاربته الملك الهنام بن الجحـاف وقطعـه الحصـون السبعـة حتى وصل اليه ونصـره الله عليـه ومـاجـرى له في ذلك من أنواع الطعن والضـرب واظهـار البسالة في ميدان الحرب . . وهي من تأليف العالم العلامة القصصي الشهير أبو الحسن احمد بن عبد الله ابن محمد البكري .

والسؤال الذي يطرح نفسه :

ـ هل يمكن مواصلة تقــديم السيــر الشعبيـــة والقصص للاطفـال ، كما حدث في مجال الحكايات السببية التي اشرت اليها «عنق الزرافة» و «أذان الديك» ، فنتطرق الى مجال الدين؟!

في تصـــوري ان هذا يجـب ألا يحــدث بعــد سن الســادســة ، وتقبل الحكايات السببية من الاطفال والاباء والمـربين لن يدفعنـا الى المـزيـد ، خاصــة مع الاطفال

الـذي يبـدأون في دراسـة الـدين، وممارسة العبادات، ونحس هنـا ان السيـر الشعبيـة التي تدور حول السيـرة النبـوية الشريفة يصعب تقديمها للاطفال حتى لاتختلط الحقـائق بالخيـال. . والكبـار قد يستمتعون كثيرا بقصة «الجمل والغـزالـة» و«قميص النبي»، كما يرتاحون الى السيـر الاخـرى مثـل «ابراهيم وسارة» و«يوسف وزليخة» و«ايوب لما ابتلى»، بجانب سير الصحابة من امثال معاذ بن جبـل»، أو أوليـاء الله الصـالحين كسيـرة «ابـراهيم الـدسـوقي». . لكن مهمـا بذلنـا من جهد في تنقية هذه الاعمـال، فانهـا لن تكـون صالحـة للاطفـال، ومن الافضل ان ننأى بهم عنها، حتى لاتضطرب المفاهيم، وتتضارب مابين الخيال والحقيقة.

ان الكثير من أدب الاطفال في مجال قد اقتصر على التـاريـخ والسيـر، وقليلة هي الاعمـال العصرية المؤلفة التي تكتب للصغـار، ولنكتفي بمـا دس، وبمـا ينسـاق البعض وراءه ويقـدمـونـه للاطفال، فلا نزيد عليه بالسير الشعبيـة، لاننـا مع بداية سن المدرسة نحاول اجتذابهم الى ارض الـواقـع. . ومن الافضـل تأجيـل تقديم السير الشعبية الدينية الى مابعد مرحلة المراهقة.

مشكلة تبسيط السير الشعبية

حين نتعرض الى «تبسيط» الاعمال للاطفال، لابد وان نذكر «وست» و «تود» و «تورنديك» و «وبستر»، ولابد ان نلفت الانظار ال[illegible] ان التلخيص شيء يختلف جذريا عن السرد للاحداث، ولعل تند[illegible] التي نتبادلها عن الاعرابي البخيل الذي دعا ضيفا الى مائدته، ثم اراد المضيف ان يلهيه عن الطعام، فسأله ان يحكي قصة سيدنا يوسف، وكان الضيف أذكى من أن يستدرج، فقال في ايجاز شديد، وهو يواصل الاكل:

ـ ولد تاه، ولقاه ابوه!

هذا التلخيص يخل بأي عمل مهما بلغت روعته. . .

التبسيط ليس مجرد ذكر ماوقع بكلمات أسهل وايسر، ولا هو «التسطيح» الذي يجريه البعض، فيفسد العمل ويذهب بجماله وروعته. . انه مهمة شاقة، صعبة، لابد لصاحبها ان يبذل جهدا حقيقيا، فيستوعب جيدا العمل الاصلي، ويعيد صياغته بأسلوب لايفقده روحه، واصالته، ولايضيع منه ماهو عميق وجاد، ان عليه أن يتمثل كل العمل، ويعتصره دون اخلال بتفاصيله . .

وعلينا أن نقول للاطفال أن قراءة هذه الاعمال المبسطه لاتغني ـ مستقبلا ـ عن قراءة الاصل . .

وتبسيط السير للاطفال امر بالغ الصعوبة ، ان تلخيصها للكبار ليس سهلا ، والامر يزداد صعوبة مع الاطفال . . ومما يؤكد قولنا هذا ماجاء في مقدمة الدراسة الجادة التي اجراها د. عبد الحميد يونس عن سيرة الظاهر بيبرس ، يقول : «وليس من اليسير ان نلخص هذه السيرة الشعبية كما تلخص بعض الحكايات والقصص والمسرحيات ، لانها حلقات كثيرة ، تكثر فيها الوقائع والاحداث ، وتزدحم بالرجال والنساء ، وتتسع رقعة الارض التي كانت مسرحا لما عجت به من مواقف وحروب . . وهي تشبه الى حد كبير الروايات المسلسلة المعروفة في أيامنا ، كالقصص البوليسي الذي لا تكاد تعرف له نهاية ، ولا يكاد يجمعها خط عريض واحد يضبط سير الحوادث فيها ويحدد مابين احداثها من علاقات بارزة ، واذا كان الملخص لحكاية أو قصة أو مسرحية يشبه المصور عندما يعمد الى تصغير صورة مابحيث لايتغير التناسب الواجب بين أبعادها واجزائها فان من التعذر بل من المستحيل ان

نلخص هذه السيرة بالطريقة نفسها .

وهذا الذي يقال عن سيرة الظاهر بيبرس ينطبق على كل السير الشعبية ، واذا كان التلخيص ليس من اليسير بالنسبة للكبار فما بالكم بالاطفال؟! . . ثم ان الظاهر بيبرس شخصية تاريخية ، يدرسها الطلاب في كتبهم وحصص التاريخ ، ومن الممكن ان يخلطوا مابين التاريخ والسيرة ، فالتاريخ يقدم الاحداث ويحكم المنطق ويفتش عما كان ، ويبحث عن المقدمات والنتائج بينما السيرة تجنح للخيال ، وتنشد مايجبب ان يكون ولاتصلح وثيقة تاريخية الا فيما ندر.

وفي تصورنا ان الحل الامثل يكون في اختيار لوحات او احداث تقدم بشكل منفصل ، اذ لاحاجة بنا لتقديم السيرة كاملة للاطفال ، وقد لجأت شخصيا الى ذلك في قصة عن الهلالية رويت فيها مغامرة لابي زيد الهلالي في قبرص ، وكانت جماعة قد اختطفت الامير دياب وحملته الى هناك ، فسافر اليها أبوزيد الهلالي واستطاع ان يخلصه ويطلق سراحه بعد مغامرات مثيرة موفقة ، وقد نشرت القصة مرتبطة باحداث محاولة مماثلة ، لم تلق النجاح ، وقد جرت هذه المحاولة في قبرص عقب

اغتيال يوسف السباعي وارفقتها بهذه الدراسة.

واختيار هذه اللوحات بمثابة تحويل للسير الى مجموعة من الحواديت الشعبية، وفي يقيننا انها سوف تلقى نجاحا كبيرا، لان فيها كل العناصر التي تكفل لها اجتذاب الاطفال واقتناعهم، وقد تثيرهم قصة أو لوحة من سيرة فتدفعهم الى قراءة السيرة بكاملها، وربما يقودهم هذا الى غيرها من السير، الأمر الذي ولاشك يرضينا ويسعدنا.

بعض الاباء والمربين يرون في السِّير والحكايات الشعبية مجموعة من الاحداث المفزعة، التي تضيف الجديد الكثير لما لدى الاطفال فعلا من مخاوف (في الأميرة ذات المهمة يقتل العبد سيدته، وتترك طفلها الرضيع وحيدا). . كما يرون فيها مجموعة من اكاذيب تبعد الطفل عن واقعه: طبيب الاسنان، ومرت كلبه، وغضب مدرسه. . بجانب ان كثيرين يودون ان يعيش الطفل بعيدا عن الفزع والخوف والعنف والغيبيات وكلها من سمات هذه الاعمال. .

غير ان السير والحكايات الشعبية تخدم اهدافا أخرى غير تلك التي تستهدفها الحكايات الخيالية الهروبية، التي يلجأ اليها الاباء ليرووها لاطفالهم قبل النوم عن الحوريات الجميلات، والفراشات الملونة، والزهور والورود. . هي تريد أن تقول لنا ان في العالم شراً وإشراراً، اذ اننا في العصر الذي وضع فيه الانسان قدمه على سطح القمر، وجعل حبات الرمل والسليكون تفكر من اجله، مازال هذا الانسان يعيش في حروب مستمرة

وصـراعـات حادة . . ووصلت العـلاقـات الانسانية الى ماتحت الصفـر، ومازال الكثير من اسرار الحياة غامضا، ومازلنا نتساءل عن هدفها، ونردد مع الملك لير لشكسبير:

- من يستطيع ان يقول لي من أنا؟!

. ان علمـاء البيولوجي وعلماء السيكولوجي قد يقولون لنـا الكثيـر عن سلوكنا والتغييرات الكيميائية التي تحدث عنـدمـا نغضب، لكنهم لايقولون لنا الكثير، أولا يقولون لنـا شيئا عن الشر واصله، واسبابه، وكيف نجتثه . . لقد استطـاع العلم والتكنلوجيـا ان يجتـذبـا العـالم، لانهما يجيبـان على أسئلة عدة، وبـدأ الابـاء والمربون يُعدون ابنــاءهم للحيــاة العمليـة، غيـر واضعين في حسـابهم «القيم»، ونحن نبكي حين يجف بئر بترول، وننسى اننا الـذين استنزفنـاه، نحن نأسى لاجتثاث الغابات ويفوتنا اننـا نصنـع ذلـك بفؤوسنـا . . «والحيـاة مع الطبيعة» امر مطلوب، وليس الحيــاة على حســابهـا، ومن هنـا تأتي حتميـة الحكـايـات والسيـر الشعبيـة : انها نمط آخر من الصــدق والحقيقـة، انهـا تحقق احتيـاجـات ضروريـة للبشـــر، منهـــا أن يعـرفـوا جذورهم وأصـولهم وقيمهم الجمـاعيـة، وتقـدم لهم تجـربة الانسان على الارض،

وتجيب على عشـرات من أسئلة تطـوف بذهنهم ، ولن يجـدوا سبيـلا لمعـرفتهـا اللهم الا من خلال الادب الشعبي . . انـه يشبـع احتياجاتهم النفسية . ولا يجعلهم يهـربـون من الـواقـع كمـا يظن البعض بل انها تجعلهم يعيشـون فيـه ويتعـاملون معـه . . اننـا اذا أنكرنا الخيال والقـدرة على أن نحلن بأشيـاء قيمـة فاننا سوف ندمّر هبة سمـاويـة منحنـا الله ايـاهـا ، وعنـدما نسمع هذه العبارة (يحكي ان . . .) فاننـا ننتقل في ثوان الى عالم جئنا منه ونعـود اليـه ، ومـانسمعـه سوف يجعلنـا اكثر قدرة على مواجهـة مشـاكلنا ، وحل ازماتنا ، والتعامل مع الاحداث اليـوميـة بصـدر رحب . . اذا تصور البعض اننا نهرب من خلال الحكـايـات الشعبيـة ، فليدرك اننا نهرب استعادة لأنفسنـا . . لذلـك يجـدر بنا ان نجعل السير والحكايات الشعبيـة محـور التـربية في البيت والمدرسة لانها مصدر ثري ونبع حقيقي لفهمنا للانسان . .

ان الخيـال المتبلور في السيـر والحكـايـات الشعبية يسدّ الثغرات في مفاهيم الطفل ، وهي ثغرات ناجمة عن عدم نضج تفكيره وحاجته الماسة الدائمة الى المعلومة ، والمعـرفـة ، ومما لاشك فيه أن السير تسد الفجوة القائمة مابين الماضي والحـاضـر ، واذا ماأهملنا السير اتسعت

الفجـوة، ، وهـل منا من يريد ذلك؟! . . اننا نريد الحياة تيارا مستمرا من الماضي الى الحاضر تجاه المستقبل . . ونحن لن نستطيـع ان نكشف عمـا يزعجنا ويقلقنا الا اذا كشفنـا عمـا في اعمـاقنـا، والخشى مانخشـاه الفـراق او فقـدان الاشيـاء، وقيمـة السير في انها ليست انتصارات على الآخـريـن فحسب، بل هي انتصـار على النفس والشـر، والاعـداء قد يرمـزون الى ذلـك . . ان السير قد تحكي عن سلطـان أو ملك عاقـل، يحكم بالعـدل، ويعيش في سلام، وسعـادة، وذلـك ضروري بالنسبـة للانسان نفسه: ان يحكم نفسه، ويتحكم فيها، ويعيش في سلام وسعادة.

والـذي نريـد أن نؤكـده ان لهـذه السير تأثيراً ايجابياً على ثقـافـة الابنـاء، وعلى شخصيـاتهم وعلى نموهم، ونتطلع الى ان يقتنع المربون والاباء بذلك، وان يدركوا ان السير وسيلة لتربية الابناء، وانها جزء لايتجزأ من حياة المجتمـع، التي قد يثـور عليها البطل او الطفل، بهدف التغييـر، لكنهـا اولا وأخيـرا ثمـرة تفكيـر جماعي، تريد للصـغيـر ان يتـوافق مع النـاس، وان يعيش بهم ولهم ومعهم، كفرد في مجتمع.

والسير والحكايات الشعبية وسائل للتعامل مع العالم

كمـا هو. . مواجهـة للحقيقـة، وتكيفـا مع الـواقـع، لا الهروب منها ومنه الى حيث (بيتربان والقرصان والارض التي لم توجـد قط)، بل انهـاا الخيـال البنّاء الذي يشترك فيـه الكبيـر والصغيـر، ويمـارسـان تجـربتـه البّـالغـة الخصـوصيـة اذا كانـا يريـدان ان يعيشـا على الارض، وليس في مدن مصنـوعـة من الشيكولاته، وعالم سحري اسطـوري. . ان ميـزة السيـر والحكـايـات الشعبيـة انها تدخـل الى عالم النفس، إنهـا تتعـامـل مع «الـداخـل» ولـيس مع الـعـالـم الـخـارجي، وتكشف الافكـار، والخـواطـر، والخيـالات. . وليس ذلـك بالنسبة للافراد وحـدهـم، بل بالنسبـة للجمـاعات كذلك. . وهي تعين على تنظيم نشاطاتها، وترجمة قيمها، وتسجيل تاريخها وعـاداتهـا. والطـريقة التي تستخدم في رواية هذه السير والحكـايـات لها تأثير كبير على نجاحها وتحقيق اهدافها والكشف عن معـانيهـا. . ومع الاطفال الصغار فان لها أهميـة اكبـر اذ هي تعينهم على مواجهـة مشـاكل نموهم العاطفي بل وحل هذه المشاكل، تمهيدا لاستقلاليتهم، واعتمـادهم على أنفسهم. . والاطفال يحتاجون العائلة والمجتمـع للامـان والاطمئنـان، والحكـايـات الشعبية والسيـر تيسـر منحهم الاحسـاس بهـذا الأمان، والشعور

بالاطمئنـان، لانهـا تبعـدهم عن المشـاكـل بمسـافات طويلة، ولاتجعلهم غارقين فيها، انما هي أي المشاكل ـ موجـودة في عالم آخـر بعيـد كل البعـد، عالم خيالي، تاريخي، وتنتهي تلك المشـاكـل دوما الى خاتمة سعيدة وذلك يمنحهم الأمل في المستقبل والحياة.

والمـربـون الـذين يرون في أنفسهم انصـاراً للواقـع والحقيقـة قد يرفضـون سيرة الظاهر بيبرس، لانها ليست تاريخـه الحقيقي، وهم بذلـك يرفضـون تراثهم الـذي تبلور عبـر السنين، ويـرفضـون فوزق ذلـك وسـائلهم السيكـولـوجيـة للتعـامـل مع هذا العـالم المعقـد، فقد كابـدت هذه السيـرة الـزمن، كما انهـا وصلت الينا عبر أجيال: كيف نبددها؟..

انهـا مليئـة برمـوز الحيـاة، والشيء الغريب ان الاطفال يستجيبـون لهـا ويطـربـون، ويفهمـون ويستوعبـون احـداثهـا، وبنـاءهـا الـروائي، ومعـانيهـا.. واذا كانت العقليـة الغـربيـة تفصـل مابين العقـل والمـادة، الروج والجسد، فنحن في الشرق لانرتضي هذا، والطفل قادر على ان يحمل في رأسه أفكارا متناقضة ورغم ذلك يرى انهـا كلهـا صحيحـة وسليمـة، وهـذا ليس ضد منطق الاشياء، ولا هو ضد القيم الاخلاقية ان يقول لنا طفل ان

هنـاك تمساحا تحت السرير، وان اسدا يعيش في البيت المجـاور. . والـرفيق الخيـالي للطفـل ممـا يؤكد صدق مانقـولـه، اذ كثيـراً ما «يختـرع» الطفـل لنفسه صديقا لا وجـود له، يتحـدث اليه، ويبادله الافكار، والمشاعر. . ذلك هو عالمهم، وغير مسموح للكبار بأن يدخلوا اليه.

وفي الحكـايـة الشعبيـة والسير بناء فني، (مواقف قد تكون مشكلة تبحث عن حل، أو مهمة لابد وان تؤدي، أورحلة يجب ان يمضي اليهـا البطل) وفيها ينتصر الخير على الشـر، والمـرحلة قلـترمزفي الغالب الى رحلتنا في الحيـاة نفسهـا، لذلـك فهي وثيقـة الصلة لا بالافـراد فحسب، بل بالمجتمـع الذي يعيش فيه هؤلاء الافراد، والامر ذاته ينطبق على المشكلات والمهمات، وهي من طبيعة الحياة. .

والـزمن في السيـر الشعبيـة يتـوقف، ويستبعد، لاننا ننتقـل الى عالـم نستطيـع ان نواجه فيه مشاكلنا ومتاعبنا، والخاتمة السعيدة والعمل كله خير عزاء وخير تعويض لنا عن الوقت الصعب الذي عشناه قبل ان نسمع السيرة أو نقرأها. .

وفي السير نلتقي كثيرا بالرقم (٣): انه تقليدي فيها، ثلاث شخصيات، ثلاثة أحداث، ثلاث مهمات، ويبدو ان السبب يكمن في ان الرقم ٣ هو الاساس في الرابطة العـائليـة، انه الاب والام والطفل، والصغير حين يسمع

قصــة يتعـاطف مع الطفـل وقـد يتـوحـد فيـه، بحثا عن المغـامـرة، وجـريـا وراء الامان والاطمئنان، ولا يهم ان يكون هذا البطل هو الكبير أو الاوسط او الاصغر. وهذا الاخيـر يمثـل في البداية السذاجة أو العجز أو الفشل اذا قورن بالشخصيتين الاخـريتين: ـ أبـويـه غالبـا أو الكبار بصفة عامه، وعندما ينمو ويكبر أو يقوم بالعمل البطولي، ساعتهـا فقـط يرتفع الى مستواهـم (سندريلا تضطهد من اختيهـا، العنـزة الثالثة الصغيرة تسخر منها اختاها لبنائها بيتـاً من الحجـر، وفي النهـايـة نجـدها الاعقل، ونفس الشيء نلقاه في السير..).

والنقطـة الاخيـرة حول الـرقم (٣) هي التكرار الذي يشعـر الصغـار والكبـار بشيء من الارتيـاح خلال روايـة الاحـداث.. «الـولـد الاول»......، الولد الثاني.. الولد الثالث...، ان ذلك يدعم المعاني، ويمكننا من الاحســاس بالتميـز، ويخفف من التـوتـر الـداخلي، ويشعـرنـا بشيء من الامـان لقـدذرتنـا على التنبؤ بمـا سيحدث، عندما نجد انفسنا قد احسنا الاستنتاج.

ان الـبحث عن كتــاب النيــل ـ سيف بن ذي يزن ـ والنضال من اجل المكانه الاجتماعية ـ عنترة ـ وغير ذلك

يؤكد الحاجة الماسة الى السير، والى هذا اللون من الفن الذي يصل منا الى الاعماق حيث تختفي آمالنا واحلامنا ومخاوفنا ومشاكلنا في هذه الحياة البالغة التعقيد، ونحن في الحقيقة نعيش المستقبل من خلال الاحلام، والغموض، والمخاطرة المحسوبة اكثر مما نعيشه بالمنطق. والعقل الذين لايكفيان لحل المعميات التي نتوقعها على الطريق، والتي تكمن في المفاجآت التي تحملها الحياة، وكثير منها يسير في خط متواز مع سير الاحداث في السير الشعبية. تلك الاحداث الحيوية العامرة بالحركة والمتعه، والتي تفرض فيها وتؤكد اخلاقياتها لكي تقود مسيرتنا الحياتية، وهي ليست مجرد تفسيرات عقلانية لخيال فنان بل هي شخصيات طبعت على الخير والخلق الكريم، وتستطيع من خلال ذلك تحقيق الانتصار.

وهناك فيما نرى نوعان من الصدق ـ رضى اساتذة الاخلاقيات عن بذلك أو أبوا ـ اولهما ذلك الذي نكتشفه من خلال التجربة، وثانيهما ماتثبته الايام، والطريف اننا مع السير ـ رغم قدمها ـ معاصرون بشكل دائم ومستمر، اذ هي تتجسد في كل مرة نسمعها اونقرأها او

نشـاهـدها، وتصبح كائنا حيا يتحرك بداخلنا، لانها تولد من جديـد في خيـالنـا، وتشبـع احتيـاجـاتنـا القابعة في اعمـاقنـا، حتى وانِ غابت عنا بعض الوقت واختفت في ظلال الـداخـل بحكم الـزمن، وعودة السير والحكايات هي بمثـابـة عودة الشعـور الجماعي، وتأكيد الصدق من خلال التجربة، ومن خلال الزمن، معا. انه صدق مركب.

لماذا نقدم السير الشعبية للاطفال؟

يرى البعض ان القصة مرآة الطفولة وصورة الحياة، وان ميزة القصص الشعبي انه اقدم بكثير من التاريخ، وانه يخدم الاحتياجات الفردية والاجتماعية، والفضول نحو الماضي يجتذب المستمعين دائما، ويثير شوقهم لحكاياته التي تمدهم بمعارفهم عن تاريخ جماعتهم.. ولقد نمت مع (القص) حكاية الاحداث، وانبسط الماضي البطولي العظيم - غالبا - بغرض ارضاء الزهو والفخر القبلي.

والسير تربط الطفل بتاريخ امته وابطالها الذين يتمنى الصغير ان يتشبه بهم، وهو بذلك يرتقي بفكرته عن نفسه، ويستطيع أن يتأمل ذاته في ضوء هذه الصفات التي يتحلى بها ابطال السير، فينبذ مالا يليق به، ويتجنبه، ويحاول أن يغرس في نفسه مايجعله في مصاف هؤلاء الذين اعجب بهم وفتن، ومايمكنه من أن يكون في مستواهم: شجاعة، واقداما، ووفاءاً بالعهد.. خاصة وهم أبطال من دم ولحم، وليسوا خياليين وخرافيين، مثل «سوبرمان» وامثاله، ونجاح

هؤلاء الابطال يرجع في المقام الاول الى مايتصفون به، ومـايعتنقـونـه من قيم ومثـل عليا يبشرون بها، ويدافعون عنهـا، ويلقـون الكثيـر من اجـل تثبيتها حتى تتوج أخيرا بالنصـر. . قواهم الخـارقـة في نفـوسهم واجسـامهم، وليست مستمـدة من الخـارج، أو من طبيعـة خاصه بهم وحدهم. . أي اننا نستطيع ان نكون (هم)، لذلك يتابع الصغار السير متقمصين شخصياتهم وابطالها. . من يقرأ «عنترة» ولايكون هو نفسه «عنترة»؟!

ان «عنترة» كما يسمونها «الياذه الصحراء» كانت مادة طيعـة في يد «فـاروق خورشيـد» وهـو يعيـد صيـاغتهـا للاطفـال، وقد اختار مجرى اساسيا يبحر فيه، لاينحرف الى الـروافد والفـروع، ولايشغـل الطفـل بالكثيـر من الشخصيـات، انمـا هو (حدث) يجعل منه بؤرة للعمل، ومن خلالـه يتعـرف القاريء الصغير على البيئة العربية: صحـرائـهـا، وخيـامهـا، وخيلهـا، ونـوقها، وحربها، ورجـالها، ونسائها، واخلاقياتها، وقيمها، واضعا نصب عينيـه تلك القضيـة الانسانية الرئيسة للعمل، ونعني بها (التفـرقة العنصرية) التي يحاربها ذلك الفارس الشاعر، ليسترد حقه في الحياة، ولكي تسود المساواة عالمنا. .

واذا كان طابع تلك السير انسانيا الا انها تمثل الصراعات القومية التي نشبت مابين العرب وما بين اصحاب القوميات الاخرى، واستخدمت السير لتثقيف الشعب، وتعليمه، وكانت في حد ذاتها جهازا اعلاميا فريدا، بما تضمنته من احداث وافكار. .

وقصة (ذات الهمة) تكشف عن الصراع الذي دار مابين العرب والبيزنطيين والظاهر بيبرس تحاول ان تستكمل صورة هذا الصراع،

وتغطي مرحلة تالية لسيرة (ذات الهمة) وتضيف اليه حكاية حروب العرب مع التتار والصليبيين . . أما سيرة (سيف بن ذي يزن) فتحكى عن الصراع العربي الحبشي متمثلا في مقاومة العرب في اليمن لهم، ومحاولتهم حرمان مصر من النيل . . وسيرة (حمزة العرب) و(علي الزيبق) تتضح منهما تلك الصراعات التي قامت مابين العرب والفرس . . فأي جهاز اعلامي رائع كانت هذه السير في مواجهة القوميات الاخرى، والغزوات الاجنبية الوافدة، وكم كانت صياغتها الفنية قادرة على ان تمس وجدان الناس بالتعبير عنهم على اساس انهم وحدة عضوية، يتحرك ابطالهم على كل

الســاحـة العـربيـة بلا حدود اوقيـود، وينتصـرون على مايقـابلهم من اعـداء، ويجتـازون العقبـات والشـدائـد بذكاء منقطع النظير، وشجاعة مالها مثيل. . .
والسؤال: كيف يتقبل الاطفال هؤلاء الابطال؟!

ابطال السير : ابطال كل العصور!

ان حقيقة زمنية طويلة تفصل مابيننا وما بين عصر ابطال السير . . وهذا بدون شك موطن قوة، منبعها التشوق للماضي والتاريخ . . وربما يراها البعض موضع ضعف في عصر الاقمار الصناعية والالكترونات والكمبيوتر، وفي تقديرنا ان ذلك غير صحيح ، ففي عصرنا هذا يقوم الاطفال بانشاء (صواريخ) لاتتجاوز مجموعة من المقاعد مركبة فوق بعضها بشكل أو آخر، وينطلقون بها الى الفضاء، وقد يسقط مقعد منها، فينزل (رجل الفضاء) الصغير ليعدل من وضعه وينطلق به من جديد . . كما ان الاطفال مازالوا يضعون ساقيهم من حول عصا يعتبرونها حصانا، ويعتبرون انفسهم (عنترة) ينطلق لمحاربة اعداء القبيلة، ايحقق المساواة . .

اذن لايضير هذه السير قدمها في عصر الذرة، اذ سوف يظل الصغير مقبلا على اللعب الايهامي في كل عصر، وعلى الانفعال بشخصية البطل في كل عمل فني يمس وجدانه وسوف يعجب به عبر أي تاريخ ، لان هذا البطل قادر على ان ينتصر في مغامراته ومخاطراته ،

ويتصف بالشجاعة والاقدام والصبر، ومدافع عن الحق الانساني، في ثقة بالنفس.. على ان البطل ليس بطلا في كل شيء: ان له نواحي قوه يتفرد بها، هو في عنترة شاعر وفصيح اللسان، وهو في ابي زيد الهلالي وعلى الزيبق ذكي واسع الحيلة، وهو في كل الاحول شجاع، ويرفض الضعة والهوان، لنفسه وقومه..

ان هذه الصفات الانسانية تجعل من أبطال السير أبطالا في كل العصور: ايام الفروسية، وايام الصعود للقمر. فلا قلق ولا خوف من «قِدم» هذا التراث، بل ان هذا القدم ينبعث منه عطر الماضي الحبيب، الذي فقدناه، ونتطلع الى استرجاعه.. ان الانسان على هذه الارض صنع الحضارات القديمة في مصر وبابل وآشور وفينيقيا وسبأ ومأرب، ثم صنع الحضارات الوسيطة الاسلامية والعربية، وإذا كان قد تخلف عن عصر البخار والكهرباء والذرة والفضاء، فان لديه من قيمه ومعنوياته مايجعله قادرا على صناعة حضارة انسان المستقبل.. الحضارة الرابعة، حضارة الاخا. والمساواة والعدل.

ونظرة فاحصة لشخصية بطل السير ستجعلنا ندرك كم هي «رائعة»، و«مؤثرة»، ويرى أساتذة علم النفس

أن الاطفال في حاجة شديدة اليها، نظرا لتشبع الاطفال بعنصر الخيال، وقدرتهم على التجسيد، خاصة اذا صيغت هذه الاعمال في قالب درامي وتحولت الى تمثيليات ومسرحيات ينتصر فيها البطل على المتسلطين والاشرار، ومن خلال ذلك ينفس الاطفال عن رغباتهم الكامنة واحلامهم وهم يلتقون بنماذج متفردة وشخصيات فذة وأبطال مرموقين.

والبطل العربي تتجمع فيه سمات هامة.. يمكن ايجازها في نقاط:

أولها: اتصال نسبة بما يثبت عروبته وشرفه وأهمية آبائه جميعا..

وثانيهما: دفاعه عن مثل وعقيدة، لابد وان تكون خيرة مؤمنه.

وثالثهما: ان تسنده قوة غيبيه خارقه تثبت صحة مايدافع عنه من مبدأ.

والسمة الاولى لاتعني الاطفال، ولاتهمهم في كثير أو قليل، واذا ماعرضنا لها فيجب ان نكتفي منها بالاصال.. والسمة الثالثه لابد ان نزرعها في نفوسهم، لاننا في عصر نتقبل فيه الخيال، ونود ان تتسع آفاقه عند

اطفـالنا، لكننا في الوقت نفسه نرفض الغيبات، ونعتمد على العلم. . وتبقى السمـة الثـانية التي لابد من التركيز عليها، لانها القيمة الحقيقية التي يمكننا من خلال السير الشعبية ان نغرسها في نفوس الصغار. . ونحن لا نريد له ان يقلدهـم فيحمـل كل منهم سيفـه على كتفـه ليقـاتل، ويبـارز، لكننـا نريـده ان يضـع يديـه على القيمـة التي ينـاضـل البطـل من أجلهـا، وان يعشق فكرة الدفاع عن المبدأ والعقيدة والمثل، وصولاً الى انتصاره لها.

(ابو زيد الهلالي في قبرص)

بقلم : عبد التواب يوسف



«أبـو زيـد الهـلالي» شخصيـة شعبيـة معروفة ، كان «الشاعر» يروي حكايته على الربابة في مقاهي المدينة ، وطـرقات القرية . . . وكانت البطولات التي يقوم بها «ابو زيد الهلالي» خارقة رائعة ، تشد اليها المستمع ، وتجذبه لمعـرفـة أخبـاره مع قبيلتـه «بني هلال» التي خرجت من

«نجد» في الجزيرة العربية الى تونس الخضراء حيث استقرت . . وخلال هذه الرحلة الطويلة مرت القبيلة في أراضي الحجاز، والعراق، وسوريا، ولبنان، وفلسطين، ومصر، وليبيا، حتى وصلت الى تونس.

وفي اثناء وجودهم في الشام اضطر أبوزيد لركوب البحر الى قبرص لمغامرة فريدة، أعتقد انها ستدفعكم الى قراءة حكاياتنا الشعبية، ومن بينها سيرة «بني هلال»، وبطلها «أبوزيد». .

***

علم ملك قبرص أن بني هلال قد هزموا حاكم حلب، وأخذوا كل أمواله وأموال تجار بلده، وبينهم واحد من القبارصة . . فبعث الملك ثلاثة من رجاله احتالوا على الامير دياب، ونجحوا في خداعه الى أن حملوه الى سفينتهم، ووضعوا له منوما في الطعام، فراح في سبات عميق، وقيدوه بالسلاسل، وانطلقوا به الى جزيرة قبرص . . وعندما نقل الخبر الى بني هلال وقع اختيارهم على البطل «أبوزيد الهلالي» لكي يسافر الى قبرص لتخليص الاميو دياب من الاسر. .

وعندما وصل ابوزيد الهلالي الى قبرص، تنكر في

زي راهب، وسمى نفسه «سلامة» ومضى على الفور الى قصر الملك الذي شك فيه ـ لانه يسمع الكثير عن حيل وألاعيب أبوزيد الهلالي سلامة، ومع ذلك نجح أبوزيد في اقنـاع الملك أنـه راهب، وقـدم له بعض البخـور والشمـوع، على انهـا من الدير، واستضافه الملك عنده في القصـر بعدما تبادلا الحديث وأبدى «أبوزيد» دهشته لذكـاء الملك الـذي حكى له عن أسـره للأمير دياب. .

وبعـد أن تنـاولا الطعام سأله «أبوزيد» أن يسمح له برؤية «دياب» في الحديد، داخل السجن، وقبل الملك هذا، ونـزل «أبـوزيـد» الى قبـو تحت الارض يعاني فيه دياب العـذاب، وعنـدما التقيا قاما بتمثيلية طريفه، اذ صفع ابو زيـد الامير دياب تشفياً وانتقاما، فصرخ فيه دياب، قطع الله يمينك. .

رد أبوزيد: وأنت، قطع الله عمرك في هذا السجن.

وعـاد أبـوزيـد الى الملك يسألـه مزيـدا من العـذاب لديـاب، ولكن الملك رأى أن ديـاب لن يحتمـل عذابـا جديـدا، فاقترح أبوزيد اخراجه من السجن، واطعامه، حتى يستـرد صحتـه، ويبدأ تعذيبه من جديد. . وابتسم الملك للفكـرة، ويـدأ ديـاب يلقى معـاملة جديـدة،

وأصبحت تمد له الموائد. . في حين اصبح أبوزيد ينعم بجوار الملك وبرضائه عنه، واعجابه به. . الى أن حدث يوما أن قدم راهب اسمه «مغلوب بن توما» الى الملك يكنشف له شخصية «سلامة» ويؤكد أنه أبوزيد، وأنه قادم لتخليص دياب فصحب الملك ذلك الراهب الى حيث يجلس أبوزيد، ونقل اليه مايقال عنه، فانفجر أبو زيد باكيا، قائلا:

ـ انا لن أبقى هنا، مادمت لاتثق في. .

هدأ الملك الموقف، وطلب من الراهبين أن يتحدثا. . فتقدم مغلوب بن توما الى أبوزيد الهلالي وسأله من أي البلاد هو، فأجابه أنه من بيت القدس. . وكذبه مغلوب أن يقرأ له المزامير فقرأها، وان يقرأ من الانجيل، فقرأ. .

ودهش الحاضرون، وظن الملك أنه لايستطيع مسلم أن يعرف كل هذا. . ولكن الراهب أصر على ان أبوزيد يمكنه أن يعرف أكثر، وطلب الى الملك أن يتخلص منه، ولكن الملك رفض، وأجل النظر في الامر الى اليوم التالي. . وعندما اختلى أبوزيد بنفسه دهن كل جسمه بدهان «الصندل». . وفي الصباح عقد اجتماع

كبير حضره الملك، وجاء أبو زيد . . وراح يحكي عن عباد صالحين، ينقذون المؤمنين مما هم فيه من ضائقة، جاءوا ليلا وحدثهم عن فضل الملك، وعن أكاذيب الراهب فنصحوه بان يسأل الملك أن يوقد نارا يدخلها الراهبان، والكاذب منهما ستحرقه . . واستجاب الملك واوقد النار ودخلها أبو زيد، وتوما . . فاذا بالأخير يحترق، واذا بالنار بردا وسلاما على «أبو زيد» الهلالي الذي خرج منها ليعلن الملك ايمانه به وتصديقه له . . هو وكل الناس في قبرص . .

وفي اليوم التالي نصح أبو زيد ملك قبرص أن يجمع الاسرى في مكان واحد، للتخلص منهم . . وقبل الملك، وكان عددهم ١٢ ألفا . . وفي الليل تسلل أبو زيد اليهم ووعدهم بحريتهم اذا هم استجابوا له، فأقسموا على الاخلاص، فكون منهم جيشا يزحف على المدينة، على حين فك هو أسر دياب، واصطحبه الى قصر الملك ليعلنا الثورة عليه، وليتخلصا منه . . وحمل كل مافي القصر من تحف ومجوهرات وحملها الى السفينة التي سافرت متجهة الى ساحل سوريا . . وهناك كان كل أفراد بني هلال في انتظاره ليستقبلوه ودياب

بالهتاف والتهليل.

***

هل رأيتم الى أي حد تمتليء هذه السير الشعبية بالمغامرات المثيرة؟ . . ان مغامرة «أبو زيد الهلالي» في قبرص لم تتجاوز صفحاتها في سيرة الهلالية عدد اليد الواحدة، في حين أن السيرة مدونة في ألف صفحة . . وذلك يكشف لكم كم هي محتشدة بالطريف، والغريب، والمفاجيء . . وهي تحكي تاريخا لقبيلة مسلمة هاجرت في القرن الخامس الهجري من الجزيرة العربية الى تونس، وخاضت خلال رحلة الهجرة معارك ضارية، كما قاتلت «الزناتي خليفة» البطل الكبير الذي كان يعيش في تونس في ذلك الحين . وكان الناس يتبعون معارك الهلالية ليلة بعد ليلة في حلقات مسلسلة تفوق في جمالها حلقات «التليفزيون» والاذاعة، وكان الراوي يحكيها على موسيقى الربابة الشعبية الجميلة . . .

الادب الشعبي وخيال الاطفال

خطرت ببالي ذات يوم فكرة ابتهجت لها كثيرا . . أن أقدم للأطفال كتابا أو برنامجا اذاعيا من قسمين . . الاول: أروي فيه حكاية بساط الريح، وفي القسم الثاني من الكتاب أو البرنامج أقدم القصة العلمية للطائرة. ويكون هذا استهلالا نسلسله على نفس النهج . . وحملت الفكرة فرحا بها الى د. سهير القلماوي فاذا بها تقول:

ـ لماذا تريد أن تغلق في وجوه الاطفال باب الخيال، دعهم في خيالاتهم واحلامهم يستمتعون ببساط الريح .

تذكرت هذه الحكاية وأنا أدير في رأسي موضوع «الخيال والأطفال» هذا الموضوع الذي يثار بين حين وآخر، ويثار من حوله جدل طويل، دفع بالمانيا الغربية وفي برلين بالذات الى وقف رواية الحكايات الشعبية والاساطير في دور الحضانة ليشب جيل جديد، لم ولن يسمع عن سندريللا وذات الرداء الأحمر، وغيرها من القصص التي ظلت تروى للصغار عبر قرون طويلة، ذلك أنهم لايريدون أن يعيش الناشئة في ظل الخوف

والـرعب النـاجمين عن هذه القصص، التي تقدم أبطالا من الملوك وكبـار التجـار والنبلاء، لايستحقون الاحترام والتقـديـر من جانب النـاشئين، اذ أن هذه الشخصيـات ليست النمـاذج التي يجب أن يكبـر الصغـار ولهـا في نفـوسهم ووجـدانهم نوع من التبجيل والتقديس، بل إن هؤلاء الذين يحتضنون هذه التجربة يريدون لابنائهم أن يشبـوا دون أن يحملوا الخـوف أو الـرهبـة لكـافـة ألـوان السلطـة: سواء كانت أبـويـة داخـل الاسـرة، أو أستاذية داخل المدرسة أو رمزا للسلطة والمال في الحياة العامة، حتـى أن الـمعلمين في هذه المـدارس ليس من حقهم اصـدار الاوامر والنواهي للصغار حتى لايحطموا التلقائية في نفوسهم وحتى لايقيد الصغار بقيود تحول بينهم وبين الانطلاق.. ذلك انهم يعايشون عصرا يسوده العلم والتكنلوجيا.

وكثيرون من العاملين مع الاطفال يعتنقون هذا الرأي الـذي ينـادي بأن الاجيـال الجـديـدة تنمـو في عالم الطـائرات التي تسبق الصوت وفي عصر الفضاء والأقمار الصنـاعيـة وعلى الارض يرون ناطحـات السحـاب، ويشـاهـدون الحيـوانـات المفتـرسـة داخل اقفاصها في حدائق الحيـوان، وهـم يمسكون بأيدي آبائهم، ويطرح

أصحاب هذا الاتجاه السؤال التالي :

ـ هل في مثـل هذا العـالم، وفي ذلـك العصـر تعني الحكايات الشعبية شيئا؟ وهل يفيد الادب الشعبي الاطفال؟

ـ هل تجدي قصة علاء الدين ومصباحه السحري الذي يحقق كل الآمال والأمـاني؟ وهل «افتح ياسمسم» تفتح بئر بترول؟

ـ هل لحكـايـة ذات الـرداء الأحمـر التي تذهب لزيـارة جدتهـا عبـر الغـابـة لتجدها في بطن الذئب ـ قيمة لكي نرويها ونظل نرددها على أسماع الاجيال الجديدة؟

ولكن . . في نفس العصـر وفي ذات العـالم ما ان يجـد الطفـل قطعـة خشب أو عصـا حتى يسـارع بالتقـاطهـا وامتطائها باعتبارها صاروخا عابرا للقارات والمحيطات . والأطفال في بيوتهم يستخدمون المقاعد لكي يبنوا سفينة الفضاء وربما استخدموا يد المكنسة كصاروخ، وتنطلق بهم المـركبـة في غرفتهم التي تتحول الى فضاء خارجي للكـرة الارضيـة. وقـد يحدث للمركبة عطب كأن يسقط أحد المقاعد مثلا ـ ويخرج الطفل من مركبته ليصلح من شأنهـا ثم يعـود لينطلق الى القمـر بعد أن أصلح العطب ليصبـح من رواد الفضـاء . . كمـا أن الاطفـال يحاولون

يوميـا تقليـد الكبار في حياتهم فما من طفل والا أدى دور أبيــه أو مدرســه، ومـا من طفلة الا وقـامت بدور الام مع دميتهـا وقـد يتشاجر الاطفال حول دور المعلم وكل منهم يرى أنه أحق وأقدر في القيام به.

ويروى البعض أن هذا يحدث فقط مع الاطفال حين يلعبــون في عالمهم الخــاص الــذي يخلقــونــه وفق مشاعرهم ومفاهيمهم وأنه لاعلاقة بين هذا وبين مايجب ان نعطيه لهم وهنا نتساءل:

ألا يصبح هذا العالم بلا خيال ثقيلا مملا؟

أن الخيــال يشـد الاطفـال ويجتـذبهم ويجب علينـا أن نعطيه لهم كي نعاونهم على تقدير الاحكام على الاشياء ماالخطأ. وما الصـواب؟ ماذا يفعـل الطيبون ومايفعل الاشرار؟ لماذا يُثاب الأخيار ويُعاقب الأشرار؟ أن الطفل يلقى بهــذه الاسئلة لانــه يريــد أن يلعب دورة في هذا العـالم. أنـه يريـد أن يعرف المباديء والقيم التي يحدد في ضوئهـا تصـرفـات الآخـرين وميـولهم، ان الأطفـال لايـحـكـمــون على النـــاس من حولهم وفق كلمـــاتهم المعسـولـة بل نتيجـة لتصـرفاتهم ومن هنا يأتي تقييمهم للأشخــاص. ان الاطفــال يحبــون ابتكـار المـواقف

والاحداث التي يتعين عليهم وعللى أهلهم أن يتغلبوا عليها .

ان خيـال الطفـل دنيـا واسعـة بلا حدود ، تعيش فيها صور وشخصيـات واحـداث ومرئيات واذا نحن لم نخلق له هذه الـدنيـا ، ابتكـرهـا وأوجدها . . انها دنيا يستبقيها الطفـل ممـا يسمعـه من قصص أوحكَايـات ، وأحيـانا يخلقهـا ، ويعيـد فيها تنظيم العالم كما يتراءى له ، وكما يحلو له أن يصـوره وقـد استطـاع كثيـرون أن ينفذوا الى خيـال الطفـل ويخلقـوا فيـه مايتمنى بالفعـل أن يكـون موجـودا ، فالطفـل مثـلا يلاعب القـط ويحـدثـه ، وكلنا نلاحـظ كيف ينعقـد الحـوار الغـريب بين أطفـالنا وبين الطيـور والحيـوانـات ، وأمنيـة الطفل أن يرد القط عليه ، ويـنطق الكلب الصغيـر . ويخـرج الفأر من مكمنـه ليلاعبه ويتبادل معه الحديث .

وقـد فهم والت ديـزني كل ذلـك ، وخلق منه «ميكي ماوس» و «دوالـد دك» وعشـرات الشخصيات التي تعيش اليـوم بعـد موت الفنـان مبـدعهـا ، وستعيش طويلا رغم مايوجه اليها من انتقادات ، ورغم محاولتها زرع الفردية ، وذلـك لانهـا شخصيات حيّة ، عاشت من قبل في أحلام

الا طفال وفي خيالهم وفي آمالهم، منها يصنعون عالمهم الخاص ويخلقون ابطالهم، ويتعاطفون معهم . .

وأطفال اليوم هم رجال المستقبل، وتشكيل خيالهم وتربية أذواقهم معناه التأثير على الجيل القادم كله، وذلك يطالبنا بـ[illegible] الأفادة من الشكل الذي أبتكره ديزني، لنضمن موضوعاته الجديدة [illegible] فعلت انجلترا حين اشترت حق استغلال الشخصيات دون القصص . . فان هذه القصص تسببت الى حد كبير في مرض خيال الاطفال . . وهي ليست وحدها المسئولة، بل يشاركها تأثيراً اعلانات وحلقات التليفزيون، ومغامرات الكوميكس المنشورة في المجلات والتي تقدمها الشاشة الصغيرة، وما من علاج لذلك سوى أن ندع الطفل يرسم كل ماترسب في عقله الباطن، فيتخلص من قلقه ومخاوفه . . ومسابقات الرسوم التي تقدمها الاذاعة ـ المسموعة والمرئية ـ ناجحة، وتلقى الاقبال لهذا السبب بالذات . .

ان أطفال اليوم ـ كما يرى البعض قد ضاقوا بسذاجة الكتب التي تسمى كتب الأطفال، وضاقوا بـ

(بساط الريح) و(سندريلا) و(ذات الرداء الاحمر)، ورفضها كثيرون منهم، لانها بالغة السذاجة، ممعنه في البساطه، ولانها تحدد خيالهم، في حين ان هذا الخيال يستطيع أن يغير الكثير في ذوقهم، وبالتالي يغير من عالمنا ذاته، لهذا ينادي البعض بألا نخاطب الطفل من أعلى خاصة في مجال الخيال، لانه يسبقنا ويتفوق علينا في هذا الميدان بالذات.. ولاشك ان الكلمة

المسموعة أروع أساليب خلق الخيال، لاننا حين نقول كلمة (بيت مثلا، سوف يتصور ويتخيل كل طفل بيتا خاصا به، في حين يحدده الكتاب والمجلة، والتليفزيون والسينما، وأيضا المسرح، ذلك الخيال يحتاج الى صبر وجهد كبيرين، ورغم قدرة الفنانين البالغة واجادتهم لصنعهم الا انهم يعرفون أن الحقيقة ليست فيما هو موجود فحسب، بل هي تكمن فيما نصدقه.. وفارق بين الخيال من جانب وبين الكذب وعدم الصدق من جانب آخر.. ونحن نكذب عليه حين لانحدثه عن (الله) و(الموت) و(الجنس)، بحجة أنه سيكتشفها مستقبلا، مع انه يطرح عشرات الاسئلة عن

جل جلاله، ويدرك أن أباه سيموت في يوم من الايام، ويتطلع الى معرفة (من أين جاء؟) من زملائه ومن (الشغالة) اذا لم يجد منا جوابا شافيا . .

عاد عصام ـ ٤ سنوات ـ في الاسبوع الاول الذي التحق فيه بدار الحضانة يروي حكاية عن طفل يحمل مسدساً يطلق منه النار على أطفال المدرسة!، وهو لم يكن كاذبا مع انه لو يوجد بالطبع مثل هذا الطفل . . ودهش الجميع . . انها حكاية خيالية توهمها يريد عن طريقها ان يقنعنا بعدمم الذهاب الى المدرسة وقد رافقه أبوه في اليوم التالي يحثا سويا عن حامل المسدس ولم يجداه، وادعى عصام انه اختفى وراء شجرة وذهب الاب الى حيث قيل له انه اختفى وعاد ليقول انه انتزع المسدس وحمله ولن يعود صاحبنا الى حمل مسدسه . ولم يعد عصام يروي قصة الطفل والمسدس بعد احساسه بالامان والأطمئنان وبعد أن أشعرته الاسرة انها معه ويجانبه داخل المدرسة . . وفي الخامسة من عمره بدأ يفقد أدواته المدرسية وادعى ايضا ان هناك لصا يرتدي ملابس ذات خيوط حمراء ويسير حافي القدمين متسللا الى الفصل ليسرق جميع أقلام المدرسة وعندما

أبلغـوه أن اللص قد قبض عليـه وأن عليه أن يحافظ على أدواتـه بدأ يعـود بهـا الى البيت لذلـك فان علينا ان نقدم للطفل أعمالا اذاعية بسيطة، مليئة بالصراعات الدراسية حافلة بالصـور والشخصيـات الاليفـة اليـه ونستطيـع أن نتغلب على مايـواجههـا من صعـوبات وعقبات وعليه أن يدرك أنـه ليس هنـاك انسـان ولد بطلا، ولكن كل انسان يستطيـع أن يصبـح بطلا وعليه أن يفعل شيئاً لكي يصبح البطـل المـرمـوق، ولا يكتفي أبـدا بأن يتكلم وأن يكون جميل الصبنورة. وعلى بطل حكاياتنا الخيالية أن يواجه دائمـا بالمـواقف الصعبـة والاخطـار الكبيرة التي يتغلب عليها. واذا لم يحب هذا البطل حياته واذا لم يخف من المـوت، اذن فهـو ليس بأنسان، ان البطل يخاف ويعلن عن خوفـه وضعفـه ولكنه يسرع لمواجهة الأخطار وينتصر بعد أن يكسب تعاطف الصغار وابتهاجهم بانتصاره على الشـر وبـذلـك يصبـح هذا البطل قدوة انسانية، يستحق الجائزة والنصر بعكس عنصر الشر في القصة.

والأطفال يحبون سماع الحكايات التي يعتقدون أنها ممكنـة الحدوث وهم أيضا لا يرفضون الاحداث الخارقة للطبيعـة أن البطـل يذهب الى أعمـاق الغابة المسحورة

المظلمـة وهويصارع الوحش الخرافي ، بعد قليل يقف وقـد وضـع قدمـه فوق جثتـه ثم ينتـزع الأميرة من برجها العالي ، وينطلق بها ثم يمزق التنين بسيفه وهو بطل لأن الصغار يفهمونه ويتخيلون أنفسهم في مكانه ويتمنون لو انهم قامـوا بدوره. والحكـاية الخرافية هنا مدخل ومفتاح لفهم الـواقـع فهذه التجربة تمنح الطفل قدرة فائقة على الحكم على عالمـه وحـركتـه الاجتمـاعيـة والخير والشر يقـدم كل منهمـا نفسـه في ذات العمـل : الخيـر يحمي الحيـاة، والشـر يقتلهـا والنصـر يبني والشر يهدم ، الخير منتـج ، والشـر ليس كذلـك . الخيـر يحب النـاس والشر يكرههم . وبذلك ينقسم العالم أمام الطفل قسمين : لأن الخيـر يتجاوب مع رغبات الصغار، ويعمل من أجلهم ، ينتصـر على الشـر، ويبقي العقـاب الاخيـر. ان الامـر واضح ، وهو صادق أيضا ففي القصص الخيالية ، وفي الحياة .

ولـكننـا نسمـع أن بعض الأطفـال يأخـذون هذه الحكـايـات على انهـا حقيقـة انهم يعـايشـون بطلهم وينصحـونـه ويحثونه يحذرونه ويضعون أنفسهم بالخيال في مكـان البطل يقاسمونه الآلام والمخاطر ثم ينتصرون

ويثابون معه . . وكثيرا مايعبرون عن ذلك بأصوات عالية خلال القصة لانهم لايستطيعون التفرقة بين أحداثها وبين الحياة ذاتها والسؤال الذي يطرحه البعض : هل يصدق الأطفال أن هناك اشباحا وسحرة وابطالا لهم قدرات خاصة؟

ان الاطفال في واقع الامر لايؤمنون بوجود السحرة والأشباح ولايصدقون أن مصباح علاء الدين قد وجد . ولكن عدم تصديقهم لمثل هذه الامور شيء، وتوهمهم أنه حقيقة شيى آخر. وليس أدل على ذلك من أنهم أمام شاشة التلفزيون أو في المسرح يطلقون صيحات التحذير والانذار للبطل لكي يتنبه لشيء فاته، يدبره له الشرير أو اللساحر ويتصورون الخطر حقيقة واقعة تهدد البطل والسؤال الذي يطرح :

لماذا لايحدث مثلا أن يصعد طفل الى المسرح لمساعدة البطل؟

أن ذلك لم يقع أبدا لسبب بسيط هو أن الاطفال يدركون أنهم أمام عمل روائي تمثيلي بل وفوق هذا هم على ثقة من أن الكوب الذي يحمل شرابا مسموماً والذي تقدمه الساحرة العجوز [illegible]بطل لايح[illegible]ي أبدا على سم

حقيقي ورغم ذلك يصرخون : لاتشرب . انهم يتقبلون العمل كأنما هو حقيقة وكأنما هو واقع ، انها تجعلهم يشاركون في العمل ولذلك تأثير طيب عليهم وهو تأثير لاينتهي بانتهاء العمل بل يبقى جزءاً من مكوناتهم مفاهيمهم للحياة والدنيا من حولهم وتيقظهم ومشاركتهم في أحداث القصة يعني حيويتهم ويعنني استمتاعهم بها وبأحداثها واستجابتهم لها ولأهدافها.

وهنا نتساءل :

أليس هذا هو المطلوب والمستهدف من رواية القصص للأطفال؟

هذا لابد وأن يدفعنا الى أن نأخذ أمور القصة باهتمام حفاوة وأن نكون يقظين لما نعطيه للأطفال من قيم لابد وأن تكون ايجابية بناءة وان تجذبهم نحو الحقيقة والواقع . .

على اننا كثيرا مانقع في بعض المحظورات خلال تقديمنا لبعض الاعمال فمثلا تقديمنا لبعض القصص التي تعالج مشاكل الظلم الاجتماعي ونظم الحكم ، كثيرا ماتقدم الاقطاعي أو السلطان أو الامبراطور بشكل ضعيف وغبي وكثيرا مانشير بذلك الضحك عليه غير أن

هذا ليس في صالح العمل. ان البطل يجب أن يواجه بمقاومة حقيقية واناس نذله في الصراع حتى لايصبح الانتصار بسيطا رخيصا ويجب الا تتحول أعمالنا الخيالية الى محاربة السحرة وطواحين الهواء فحسب، بل لابد وأنن تتمثل في هذه الاشياء قيم شريرة وضارة بالمجتمع، يتم الاجهاز عليها.. ومن المحظورات التي يجب ألا نقع فيها أن نكون حذرين من أغراق الطفل في الخيال، الامر الذي يبدد طاقته الواقعية ويجعله يحيا دائما في أحلام اليقظة، ويهربب من مواجهة الواقع.. كما اننا قد ندفعه عنن طريق الاغراق في التصورات الى تحويل الخيال الى أكاذيب، وقد يكذب حتى يصدق نفسه حين يتجاوز سن الطفولة المبكرة.

ورغم كل هذه السلبيات فان بعض الهيئات الاذاعية: البريطانية والايطالية والسويسرية والألمانية تقبل على اذاعة القصص المسلسلة، وأن كان بعضها (مثل المحطات الفرنسية والبلجيكية) قلما يذيع هذه القصص وقد اقتبست الاذاعة بنجاح بعض الروايات المحبوبة من تأليف جول فيرن والكسندر ديماس وسيرولترسكوت ويبدو أن تحقيق هذا الغرض يقتضي

مراعاة بعض القواعد، من ذلك انه يجب ألا يتجاوز عدد الحلقات ثماني أو عشر، لاتطول كل حلقة منها أكثر من نصف ساعة ويجب أن تكون الشخوص الرئيسة في القصة واضحة المعالم، وألّا يغالي في تحديد معالم الشخوص الصغرى فالأطفال يحبون ماكان واضحا ولايفهمون منها الصعب أو المعقد.

أما الحوار فيجب أن يكون قصيرا على أن يصور جوه بالمؤثرات والاصوات الجماعية ونجاح الاذاعة رهن بتنوع المؤثرات المستخدمة لأن الاطفال يضيقون ذرعا بالحديث يلقيه فرد واحد بالحوار الطويل الممل وبالرواية يقرؤها المذيع في نبرات رتيبه متماثلة وكلما زادت الحركة في القصة اثارت ميلهم الى سماعها كذلك يجب التخفيف في القصة من حدة الجو المسرحي لذلك جرت العادة حتى في القصص المشهورة ـ على استغلال دور الضحك والافادة منه لتحقيق هذا الغرض فترى الفترة من المشاهد الجدية يعقبها حادث هزلي قصير يعين المستمع على الاحتفاظ بانتباهه، وترقبه للخاتمة، ولابد في كل حلقة من الحلقات الاذاعية المسلسلة أن يذاع ملخص على صورة حوار يخمل

للمستمع ماسبق اذاعته من فصول .

وثمة أنواع شتى من القصص المسلسلة تذاع فضلا عن الروايات المشهورة فهيأة الاذاعة البريطانية مثلا تذيع كل أسبوع قصة تقع حوادثها في الغابة وهي ليست من طراز قصص الانسان الخارق للطبيعة ولكنها قصة صيد مغامرات كذلك تذيع هذه الهيأة كل أسبوع قصة مسلسلة تقع حوادثها في محيط المدرسة والغرض منها تبصير الاطفال بالعادات وبظروف المجتمع وتبذل الاذاعة فيها جهدها لموازنة اللهفة على سماع قصص المغامرات باذاعة قصص منتقاة من واقع الحياة اليومية . وتذيع هيئة الاذاعة السويسرية قصصا من هذا القبيل يتناول بعضها المغامرات وبعضها موضوعات من الحياة اليومية .

على أنه يجدر بنا ان نلاحظ أن اذاعات الأطفال تختلف عن صحفهم في انها لاتصر دائما على اقحام الخوارق من الابطال أو الأحداث في قصصها على نحو ماتفعل الصحف ولعل في اسهام المعلمين في هذه الاذاعات مايحد من أية محاولة لابعاد الطفل عن بيئته العادية ومايقاوم رغبته في الهروب من الحياة اليومية أو

تلهفه على قصص الخوارق، ان هذا قد يقضي الى رقابة على الاذاعة ولكن خطر هذا العيب أهون من خطر الشطحات التي يقرؤها الاطفال في صحفهم.

ويلوح ان الاساطير كانت أحب أنواع القصص الى الأطفال الالمان فهيئة (البابر شروند فونك) لم تكن تكتفي باذاعة قصص الجن وأساطيرهم ولكنها تزيد عليها مشاهد من مسرحيات (فاجنر) الغنائية وقل أن تؤلف من هذه الاقاصيص والاساطير قصصا مسلسلة طويلة جدا بل ان الهدف فيها تركيز الحوادث الهامة والاستعانه بجو خلفي من الموسيقى الملائمة لربط المشاهد المختلفه بعضها ببعض كذلك جربت هيأة الاذاعة الفرنسية اذاعة قصص مبنية على أساطير وتشتمل بعض برامجها التي تذيعها مرة أو مرتين في الاسبوع على أساطير للأطفال.

وفي بعض هذه الاذاعات من الخيال - كما يقول تقرير اليونسكو عنها - مما لاسبيل الى انكاره ولكن من المؤسف أن يلجأ المخرجون في أكثر الاحايين الى الحذلقة البغيضة والتعقد الممقوت بحجة اشباع شاعرية الاطفال «أن وصف» «أرض العجائب» لا يبرر

هذا التكلف السقيم وأهم جزء في اذاعـات الاسـاطير وقصص المغـامـرات في العادة هو نص القصة نفسها ولو ان كثيـرا من البـرامـج تعتمـد اعتمـادا أكبـر على الغنـاء والموسيقى ولايستخدم القص الا للربط بين اجزاء البرنامج .

وللخيـال ايجـابيـاتـه التي تجعـل منـه ضرورة لازمة للطفـل خاصـة في سن عمـره المبكـر نحن نعـد للطفل ليعيش في المستقبـل ونحن لاشـك متخلفـون بالنسبـة للعصـرر الـذيي سيعيشه والمستقبل يحتاج منا الى درجة عاليـة من التخيـل والتصـور حتى لانفـرض على الطفل ماضينـا وحـاضرنا بل نعده الى مستقبل اكثر تقدما علميا وحضـاريـا . ولاشـك أن للخيـال فضله الكبيـر على الانسـانيـه لسنـا ندعى ان الانسـان اخترع الطائرة كثمرة لبسـاط الـريـح أوأن روايـات جول فيرن الفرنسي وويلز الانجليـزي وسلجاري الايطالي كانت وراء المخترعات الحـديثة كمـا يرى البعض ولكنهـا كانت ولاشك سهما يشيـر اليهـا كمـا انهـا لفتت الأنظار للاهتمام بهذه الأمور الحيوية وهذه المجالات الضرورية لحياة الانسانية .

اننا نقول داائما «فلان يبني قصورا في الهواء» نهاجم

بذلـك الخيـاليين الحالمين والذين يعيشون بشكل دائم في أحـلام اليقظـة ونـروي حكـايات مضحكة عنهم . .

ولاننسى أن نقـدم قصـة «ايسـوب» عن بائعـة اللبن التي حمـلت قدرهـا وحلمت ببيـع اللبن وشـراء البيض ثم الكتاكيت ثم . . ثم . .

واسترسلت في احلامها حتى عثرت رجلها وتحطم قدرها على ارض الـواقـع . غير أن كل ذلك يجعلنا نخلق تلك العوالم الحلوة المسحورة ولايتوقف بناؤها في الهواء كل المطلوب منـا أن نجعـل لها أساسا تقف عليه وهو أساس لابد أن لابد أن يضرب عميقا في الأرض ليرتفع شاهقا اذ الهـواء ضروري لكي تقف فيـه القصـور، والاحـلام لازمـة لمن يريـدون أن يبنـوا حيـاتهم . كل ماهنـاك أن الفارق واضح بين اطغاث الاحلام ثم تنفيذها. انها هنا آمال وأهداف نسعى اليها .

والحق أن فكـر الطفـل وعقله وخيـالـه شديـد الشبـه بالبـالـون الصغيـر الذي يحبه ـ أن البالون يحتاج منا الى الهـواء لكي يكبـر وينتفخ ، والخيال بالنسبة لعقل الطفل كالهـواء بالنسبة للبالون الخيال يوسع من عقله انه يجعله

كبيرا واذا ماتركنا عقل الطفل دون محاولة منا لكي يتفتح فلن يستطيع أن يستوعب الكثير. . عقل الطفل عند مولده كالبالون قبل نفخه: الأول يمتليء عن طريق الخيال، والثاني عن طريق الهواء، ليكبر حجم كل منهما ويتسع، واذا مااتسع العقل وكبرت المدركات أصبح من أيسر الامور علينا ان نجد «فراغا» نملؤه بالعلم والمعرفة. ان حشد للادمغة الصغيرة في السن المبكرة يحملها فوق طاقتها ويغلق منافذها أما توسيعها بالخيال فأمر لابد منه، وضروري والمهم ألا نقع في المحظورات التي سبق أن تحدثنا عنها.

وكل وسائل الثقافة تستطيع أن تستخدم الخيال. . وربما كانت الاذاعة ـ كما قلنا ـ أقدرها على ذلك، فان كل كلمة تعني خيالا خاصا بالنسبة للطفل فاذا قلنا «شارع» مثلا فالطفل سوف يتصور شارعا خاصا به ويختلف تصور كل طفل عن تصور زميله ولكننا في الكتاب أو المجله كذلك التليفزيون قد نغلق أمامه باب الخيال اذا رسمنا له البيت موضوع الحديث. . لذلك فان الاذاعة ـ هذا الصندوق السحري المتكلم ـ تستطيع

أن تشيـر خيـال الطفـل بشكـل رائع وهي بالذات أنسب وسائل استخدام الخيال فاننا نرسم بالكلمات والمؤثرات والموسيقى جزرا مسحورة وعوالم في الفضاء دون رؤية، تعطل الخيال.

وليس معنى هذا ان الاذاعة تتفوق على بقية الاجهزة في موضـع الخيـال ان بقية الاجهزة تقف عاجزة في هذا المجـال. وبـالعكس انها قادرة على اثارة الخيال بشكل رائـع لو اننـا استطعنـا ان نحسن استخـدام خيـالنا نحن الكبـار. وقـد سمعت شكـاوى من بعض العـاملين في مجـالات التليفـزيـون من انـه جهـاز لايعطى الفـرصـة لاشـاعـة الخيـال: كانمـا استطـاع هؤلاء استخدام كل ايجـابيـاته لكي يشكوا من سلبياته. ولكن الكثير مما نراه على الشـاشـة من ابتكار العقول الخلاقة ـ الذين سبقونا في مجال التليفزيون ـ تجعلنا على يقين من دوره الكبير في توسيـع آفـاق الاطفـال وبـالذات في مجال العرائس والكـرتـون ثم القصص الخيـالية عن المأثورات الشعبية والحكايات العلمية.

ثم نأتى بعـد ذلـك للحـديث عن منابع وموارد المواد الخيـاليـة التي تقدمها اجهزة الثقافة والاعلام بصفة عامة

والاذاعة والتليفزيون بصفة خاصة.

ان الاساطير أولى هذه المنابع وبين أيدينا ألوان أربعة منها. أولها: الاساطير الطقوسية التي ترتبط بعمليات العبادة أما الثانية فهي الاسطورة «التعليمية» التي تفسر الكون ومافيه تفسيرا ميتافيزيقيه والثالثة الاسطورة الرمزية وتحاول أن تلقى الضوء على الرموز والمجاوزات والأمثال التي يكتنفها جو من الغموض. والاخيرة هي الاسطورة التاريخية كأسطورة أوديب وسيزيف أو أسطورة أناس دخلوا التاريخ فعلا ولكن طمست أعمالهم مثل عنترة وسيف بن ذي يزن وهاملت. وللعرب تراث كبير من الاساطير القديمة.

وتأتى الحكايات الشعبية كمورد. والخرافة أصلها شائعة ترددت وزيد فيها حتى أصبحت جزءا من التراث الشعبي المنقول. وللعرب عامه ولمصر القديمة الكثير من الحكايات الخرافية التي تدور حول الساحر والمارد وغيرهما وتد ألف ليلة وليلة أجمل الكتب العربية في هذا المجال وقد قدم العرب حكايات جميلة من ابتكارهم الخاص واشبعوها بروحهم وفنهم الخلاق.

وهناك الفبيولات التي هي قصص على ألسنة

لحيـوانــات مثـل (ايســوب ـ وكليلة ودمنــة) وحكــايــات (لافـونتن) الفـرنسي وكـارلـوف الـروسي وهي أيضـا من القصص الخيالية التي تفتن الصغار.

وتفتنهم كذلـك حكـايـات الـرجـل الخارق للطبيعة (ســوبـرمــان) وهــو صورة متطـرفـة تبـدأ باهتمـام الطفل بالحيوان وهو أليف لديه ويعبر هذا الاهتمام الى الاهتمام بالانســان الحيـوان (طـرزان ورجـال التاريخ القديم قبل الحضـارة) ويأتي بعـد ذلـك اعجابهم بالسوبرمان الذي عرفـوه عن طريق اسـاطيـر الشـرق ولـو أن ماردنا العربي يتحـرك وفق العقـل البشري ولايتحرك ذاتيا (شبيك لبيك عبدك بين ايديك)

ويبلغ هذا الــرجـــل ذروة القـــوة في المسلســلات والهـزليـات الامـريكيـة فيصبـح نصف الـه يخـور ويـور ويضرب وينتصر باستمرار ولايموت بتاتا وهو محصن ضد الامـراض وضـد الاخطـار ويتغلب على كل المصـاعب وتتسم كل رواياته بالتوتر العصبي الشديد، ولابد أن تقلل من عرض هذه الـشخصيــات على أطفــالنــا سواء في المجلات أو الافلام.

على أن هناك نماذج من هذا البطل تتسلح بالعلم بعضها

له مغامرات تصور المستقبل وتعمد امتدادا لقصص ويلز وفيرن وسلجاري ولكن القصص العلمية الآن مختلفة عن العلم ذاته فهو يسبق الخيال في تطوره حتى أن البعض يرى أن القصص «المستقبلية» لم يعد لها مجال فهي لاتزيد على عرض حروب ذرية أو عروض كشوف جديدة تستغل في صراعات ذات طابع سياسي أو للتجسس، وذلك انحصرت قصص المستقبل في الحروب بين الكواكب (تطويرا لويلز) والسفر الى عصور قادمه كأن تشهد العالم سنة ٢٠٠٠ وبعد . . .

ان علينا ان ندرك أن العمل الواقعي ليس سوى ثمرة خيال، فاننا حين نقدم عملا واقعيا لانقدمه كما هو وكما حدث تماما، فالفنان ليس آلة تصوير تنقل ماأمامها، انما الفنان يقدم «رؤية» واقعية، سواء أمسك بالفرشاة أو القلم، وهو لاينقل ماينبت ومايجري تحت أبصاره بل يلتقط منه مايعبر به عن وجهة نظره ومايراه وقعا للوجود على الوجدان . وتصوير أحاسيس الفلسطينيين لايحتاج من الكاتب أن يكون فلسطينيا فقد دياره وارضه وبيته، انما هو يتقمص دوره ويشعر بمشاعره ويعبر عنها . ان المهم هنا هو نقل التجربة . . وبالذات في

مجـال الاطفـال . . سواء اتجهنـا في هذا الى قصص الـفبيـولا أي قصص الحكم المـروريـة على ألسنـة الحيـوان، أو الى الحكـايـات الخـرافيـة الشعبية أو الى الاسـاطيـر القـديمـة أوخلقنـا أعمـالا خيالية جديدة في مجـالات ميتافيزيقية أوعلمية . . المهم في كل ذلك أن يكـون مانـرويـه اطـارا للتجـربـة منسقـا معهـا شكـلا ومضمـونـا، ملتحمـا بطريقة مقتنعة ومثيرة، والخيال هنا هام وضـروري لتأكيـد ماهـو واقـع . . ولا بـد منه لاختيار الاسلوب والشكـل المؤثـر والنـاقل للفكرة . . ان للخيال هدفه وللواقع هدفه، وهما سويا ضفيرتان، نجدل منهما حيـاة الطفـل ونفسيتـه . ان النمو العقلي غير كاف اذا لم يصـاحبه النمو الوجداني ، وكلاهما يحتاج منا الى جهود حقيقية ، تبذل في سخاء لبناء أبنائنا .

فصل الختام

سألتني واحـدة من الـدارسـات خلال محـاضـرة لي في جامعة امريكية عن الادب الشعبي والطفل العربي :

ـ هل هناك قصة شعبية عربية أو عالمية تأثرت بها في طفولتك؟

وسألت فتاة اخرى :

ـ وهل صدقت هذه الحكايات؟

وسألت ثالثة :

ـ أما زلت تطرب لها؟

قلت لُغني تأثرت بالحكاية الشعبية تأثرا عميقا . . ولست وحـدي في ذلـك . . فان كل النـاس تتأثـر بها ، قرأوها او سمعـوهـا . . وحتى لولم يقـرأوها ولم يسمعوها . . لانها «الجـو» من حولهم ، وهي تحيـط بهم من كل مكان ، بل لافـرار منهـا على الاطـلاق . . انهـا تنتقـل كعبير الزهور وعطرها . . وعني شخصيا ، احسّ انها تخللتني بحق . .

* لقـد احسست في كل رحـلاتي باني السنـدباد . . بل انني «السندبادان» معاً : اخاف الرحلة للمجهول ، واتوق

للاستقرار، وما إن يمر بعض الوقت حتى اجدني قد رحت احزم حقائبي وانطلق بحثا عن ذلك المجهول وتوقا الى معرفته ولهفة الى البحث عنه، والتعمق فيه . .

ثم اعود فاحط رحالي!

* ولقد شعرت اني علاء الدين، وكلما ضاقت بي السّبل ـ صغيراً وكبيراً ـ تمنيت ذلك المصباح العجيب، وكثيرا ما عثرت عليه متمثلا مرة في الصبر وقوة الارادة ومرة في المثابرة والدأب، واخرى في التعلق الدائم بالأمل والتفاؤل والاستبشار. . وداثما انتصر على الساحر الشرير.

* ولقد آمنت دوما ـ ككاتب ـ بسحر الكلمة، انطلاقاً من «افتح ياسمسم» و «علي بابا» وكم فتحت لي الكلمة من كنوز وابواب ومغامرات، وحملتني فوق بساط الريح الى ارجاء متفرقة من عالمنا، ثم اخذتني اخذ عزيز مقتدر من خلال القراءة الى عوالم اكثر سحراً وبهجة وروعة. .

انني لم اتأثر فقط بالحكايات الشعبية، بل تخللتني، وجعلتني دوما جزءاً لايتجزأ من «الفولكلور»، وقطعة منه متحركة، أوهكذا تمنيت لو اكون. . ولم يتوقف ذلك التأثر عن حكاياتنا العربية بل كم ارتعدت فرقا وخوفا من الذئب وانا اقطع الغابة في رحلتها الى

جدتهـا، وكثيـراً مارأيت ذلك الذئب يتربص بي في غابة الحيـاة، وينتظـرني - في فراش الجـدة - ولكنني كنت دائـمـا على يقـيـن من انـه لو ابتلعني فسـوف يوافيني الحطاب ليضرب بطن الذئب بفأسه ويخرجني منه انسانا جديداً . .

ولقد حاولت في هذه الفصول المتناثرة المتجمعة أن الـمّ الشتات حول هذه القضية البالغة الاهمية، والتي لـم نعطهـا حقهـا من الـدراسـة والبحث، واعني بهـا قضيـة «الطفـل العـربي والادب الشعبي» . . اننـا لانشجع هذا الادب على حساب لغتنا الفصحى، بل من اجلها، ومن اجـل قوميتنـا وعروبتنا ولساننا . . ونحن لم نقف بجانب هذا الادب ضد الكتـابـات المؤلفـة، والعبقـريـات الخـلاقـة، فهو لايغني عنها ولايقف في طريقها، بل انه اغلب الاحيـان يستقي الكثيـر من مادتـه من ذلـك النبع الثري الرائع «الفولكلور» . . ونحن نريد للابناء ان يشبوا في قلوبهم «شيء» منه، ومن وجدانهم الكثير عنه . . انه الاصالة، تمتد جذورها عميقة، وشجرتها قادرة على ان تستقي من ماء الماضي السحيق، وتمتد فروعها واوراقها خضراء تظللنا . . وتزدهر، وتثمر ثمرات قطوفها دانية . .

كتب جيل الرواد عن التراث ماأعاد الينا، وما اعادنا اليه. . واظن انه يجدر بنا ان نتجاوز مرحلة الاشادة به، والتهويل له، وأيضا مرحلة التهوين من شأنه. . ان اعتبار البعض انه مامن شيء بعده، وانه ليس في الامكان ابدع مما كان، امر نفضنا ايدينا منه، فنحن نقف على اكتاف من سبقونا، والعالم يتقدم. . كما ان التقليل من قيمته ونعته بانه «اوراق صفراء» لن يصرفنا عنه بعد ان ادركنا انها صفرة الذهب وروعته. . واجدر بنا ان نقبل عليه ونصنع به، ومن أجله، شيئا. .

وقد جعلت هذا الفصل في اقسام اربعه. .

الاول: كلمات لروادنا عن التراث، والثاني عن كيفية التعامل معه

والثالث: حول تجربتي الذاتية، والرابع والاخير اشرت لمحاولات لتدميره والعبث.

القسم الاول

كلمات موجزه

مما قاله الرواد عن التراث

- ١ -

ان وعي الكاتب بعلاقته بالتراث قد تطور عبر الاجيال المتلاحقة في القرن العشرين، وان الخط البياني لهذا التطور يتحرك صاعدا بين مستويين من العلاقة: مستوى «الاستغراق في التراث» ومستوى «مواجهة التراث».

والمخطط التالي يوضح مراحل هذا التطور:

الاتصال والانفصال

المواجهة

الاستلهام الجمالي شكلاً وموضوعاً

الاستلهام الموضوعي عن بعد

الاستعادة مع التفجير

استعادة التراث مع بعض الإضافة

الاتصال الكامل

الاستغراق في التراث

وفي ضوء هذا المخطط تستطيع أن تحدد موقع أي مسرحية لها ارتباط واضح بالتراث.

د. عز الدين اسماعيل

. بالنسبة للتراث لك أن تختار منه ماشئت، سواء أكان شعرا ام نثرا ام نحوا، ثم تتفاعل معه حتى لايكون الحاصل أو الناتج نقلاً مما أمامك بل حصيلة تولدت من التفاعل بينك وبينه مثال على ذلك الشعر، أنا أميل الى الشعر وهو جزء من التراث، وأتمنى أن أخرج من قراءاتي له ـ وأنا أنسان معاصر ـ باحساس من يستطيع ان يعيش في جلد الشاعر القديم، وفي اللحظة التي أقرأ فيها الشعر قراءة ذات فعالية اتقمص الشاعر فأسمع بأذنيه وأرى بعينيه وفي هذه اللحظة ذاتها أصبح تراثا، أي أعيش الماضي، أعيش الماضي ولو للحظة، ثم أخرج الى حياتي العامة وقد اكتسبت خيطا يضم الى مجموعة الخيوط التي تكون شخصيتي. واذا كنت موهوبا وأردت أن أكتب شعرا فلن أعيد قصيدته وانما اكتسب منه حساسية وذوقا اكتسب فن القدرة على التمييز بين ماأحبه وما لاأحبه فاذا ماأكتسبت الذوق العربي في فهم الشعر وقرضه فقد أعطيت التراث حتى لو نسيت بعد ذلك كل ماقيل من الشعر القديم وحينئذ تستطيع ان تكون امتدادا لهذا التراث واستمرارا، كما تستطيع أن تجدد فيه

ماشئت ولكن بالـذوقيـة المـوروثة . والا فاذا ردت أن تبتر الصلة وتقيم ذوقيـة جديـدة وبنـاء جديـدا فبأي حق تعتبر نفسك فصلا من كتاب فيه فصول مضت؟ ستكون فصلا مبتـورا ، هل رأيت حلقـة من سلسلة غيـر موصـولـة ببقية الحلقـات؟ أضف حلقـة جديـدة ، ولكن لابـد أن يكون هنـاك الـربـاط الـذي يربطها ببقية الحلقات لكي تدعى بحق انـك تنتمي الى هذه الاسـرة . فاذا ماخرجت عليها فانـك لابـد أن تخـرج عليهـا في اطارها ، وهكذا الشعر الانجليـزي والفـرنسي وغيـره . لا يمكن ان يخلق شاعـر مواضعـات جديـدة للشعـر ، وكيف يحـدث هذا واللغـة واحـدة؟ هي مادة مثل الحجر الجرانيت عندما قام بنحته المصـري القـديم ونفس الحجر بين يدي نحات حديث يستخرج منه امكاناته ، والفرق في اختلاف الموضوع .

د. زكي نجيب محمود

-٣-

كنا بجمع تراث الشعر الجاهلي أول من اولى التراث اهتمـامـه. . وقـد مضى جامعـوه الى البـادية بعيدا عن التيـارات الـوافـده لجمعـه ممن تشب السنتهم شائبـه، وكشفوا الزائف والمنحول.

كان المستهـدف: حمـايـة لسـان الامة، المكتبات العـامـة حارسـة للتـراث والمخطـوطـات. . قبلها كانت يحتفظ بها في قصور الخلفاء. . واخرجها هارون الرشيد لتحتل بيت الحكمة، واطلق المأمون رجاله وراء الكتب يطلبـونها ويدفعون الكثير من أجلها. . لقد انفقت بغداد على ترجمـة كتب اليـونـان وحـدهـا اكثر من ثلث مليون دينار. . وظل العلماء يشدون الرحال الى بغداد، خمسة قرون لقـراءة الكتب. . الى ان جاء التتـار! وفي مكتبـة العـزيـز بالله الفـاطمي مليـون مجلد و٦٠٠ الف منهـا ٦٥٠٠ كتاب في الهندسة والفلك غير الخرائط والاجهزة العلمية. . أي أنها كانت عصرية شاملة!

وبعث المستنصـر بالله، في الانـدلس، من قرطبـة بألف دينار الى ابي الفرج الاصفهاني ليوافيه بنسخه من الاغـاني قبـل ان ينتشـر الكتـاب في بغـداد. . انه يتابع

احدث مايظهر ليضمه الى مكتبة الزهراء . .
الطريف انه كان يترجم كتبنا الى اللغات الاوربية :
الاسبانية واللاتينية
وفي مكتبـــة كانت هنـاك ١٧٠ امـرأة يكتبن المصـاحف بالخط الكوفي .

د. بنت الشاطيء

(كتاب تراثنا بين ماضي وحاضر)

- ٤ -

وكـــان من أعجب الشخصيـات في حارتنـا «الشيـخ احمـد الشـاعر» : رجل بلحية طويل اسود، يلبس جلبابا ابيض وعمامة، ويتأبط دائما كتابا لف في منديل احمر، له صوت أجش، وظيفتـه التي يعيش منهـا انه بعد صلاة العشـاء يذهب الى مقهى قريب من الحـارة ويصعد فوق كرسي عال يجلس عليـه ويتحلق حولـه الناس، ثم يفك المنديل ويخرج الكتاب وهو قصة عنترة أو الزير السالـم او الظـاهـر بيبـرس ويقـرأ فيـه بصـوته العالي، متحمسا في موضع التحمس، متخاذلا في موضع التخاذل، مغنيا بما يعــرض من الشعـر فاذا كان في القصة بطـلان تحمس فريق ببطــل وتحمس فريق لآخــر، وقــد يرشــوه أحـد الفريقين ليقف في نهاية الجلسة على موقف رائع لبطله - ولـه اجـر على ذلـك من صاحب المقهى لانه يكون سببا لازدحام مقهاه بالزائرين.

أحمد أمين - حياتي
(ص٣٩ - ٤٠)

ان قضيـة العـلاقة بين الموروث والوريث هي قضية اشكـاليـة في الثقـافة العربية المعاصرة فالتراث كحقيقة واقعـة متمثلة في النفـوس، يفقـد بعـده التـاريخي في متنـاول الـوريث. غيـر ان التـراث يتميـز في آنٍ واحـد بالسلب والايجاب ويحمل في [illegible]اته ت[illegible]ضات اساسية. فالعـرب اليـوم يشعـرون ان تراثهـم مجيـد وانه أسهم في صنع الحضارة الغربية الحديثة السائدة، ولكنه في نفس الوقت منفصمٌ عنها، حيث ان مايعرف بالعصر الحديث بدا في الغرب

في عصـر النهضـة في الـوقت الـذي افلت فيه الحضارة العـربيـة، لقد انفصل العرب عن ركب الحضارة الغربية في مرحلة صعـودهـا نحـو الحضـارة الحـديثـة، أي في مرحلة تكوينها، واستعادوا علاقتهم بها في وقت لاحق، قد نحـدده ببـداية القرن التاسع عشر، في اطار اشكالي هو اطار العلاقة الاستعمارية.

د. سيزا قاسم

مجلة (فصول)

القسم الثاني
التعامل مع التراث في الكتابة للأطفال
توظيف التراث

ليس غريبا ولا جديدا ان يغوص البعض في كتب التراث، بحثا عن اللآليء، فان عثروا عليها ازالوا من حولها القشور، ونقودها من الشوائب، وجلوها لكي تلمع وتتألق.. وهؤلاء لهم فضل ان حبسوا انفسهم وانفاسهم قراءة لهذه الاعمال القديمة التي تراكم من فوقها غبار الزمن، ونحمد لهمْ ان نفضوه عنها، وقدموه لنا.. والاختيار هنا فن، وعليه يتوقف رضا القارىء الصغير عن هذه الاختيارات، وعن اعادة الصياغة اذا قام بها الكاتب.

والبعض لايكتفي بهذا، بل هو «يضيف» شيئا من عنده.. وكل مانرجوه في هذه الحالة أن تكون الاضافة حقيقية، فلا تكون مجرد شرح وتفسير، أومحاولة لاستخراج مغزى اونصيحة، فيها من التعسف الكثير..

واذا لم يكن الكاتب ـ او الفنان ـ قادرا على استيعاب هذا التراث، ولديه فعلا مايضيفه، فاننا نرجوه ان يبتعد

عنه . . وامثلة الاضافة التي تخل بالعمل الأصلي اكثر من ان تحصى، وهي تسيء اليه اساءة بالغة . . خاصة عندما لايعي الكاتب حقيقة مابين يديه، وعندما لايحسن الاختيار، واذا ماالوى عنق المادة التراثية لتخدم اهدافا محدده، واذا مابتسرها او اختصرها او وقف بها عند «ولاتقربوا الصلاة» . . وهذا هو الذي يدعو المهتمين بالتراث الشعبي الى الصراخ في وجه المتعاملين معه ان يتقوا الله فيه، وتركه على ماهو عليه، وهو مايدعوا استاذتنا الدكتورة سهير القلماوي للمطالبة بان يتعامل الاطفال مباشرة مع التراث دون تدخل من الكبار الذين يختارون فلا يحسنون الاختيار، ويصيغون فيحرفون، ويسيئون اكثر مما يحسنون .

توظيف التراث

ان الوعي بالتراث، والوعي بالدور التاريخي له هما القدمان اللتآن يمشي بهما هذا التراث واللتان تقودان خطواته وتوجهاتها قدما . . ولن يمضي التراث على ساق واحدة، ولن نرتضى ان تبتر ساقاه، لذلك لابد من ان نحسه ونعيه وندرك دوره . . والمثقف حلقه في سلسلة

تصل ماقبلها بما بعدها، ولكنه ليس مجرد جسر يعبر من فوقه التراث بل اشبه بالمصفاة تحجب ماتحجب وتسمح بالمرور لما تسمح به . . وقد تكون المصفاة واسعة الخروق فينفذ منها لانرضاه، او ضيقه فتحبس عنا الكثير مثلا: ان شوقي حين يختار (مجنون ليلى) يظل مشدودا الى الوجه التراثي لهذه القصة الجميلة ويظل حجم مايفجره من دلالات باطنية ضئيلا، وقد حاول ان يعرض بعضا من هموم عصره وهمومه الخاصة . . ومحاولة منه للتوحد مع التراث يضع نفسه دائما في وضع المعارضة . . كما يقول د. عز الدين اسماعيل في دراسة موفقه عن توظيف التراث، وهو يرى أن الاستغراق في النموذج الجمالي القديم يحد من فاعلية الوعي بالتراث حين يراد تقديم صياغة جديدة له .

وهناك محاولة ان يقيم نوعا من التوازن مابين بعض ألايجابيات من معطيات هذا التراث ومقتضيات العصر وان يشجب بعض السلبيات . . انه الاحساس بتغير الزمن . . ومن الصعوبة ان يصلح التراث لكل زمان ومكان . . اذ الحياة تتطور وتتغير . . والتراث وان كان من الثوابت داخل اطار الكتب القديمة، الا ان التغير لابد

وان يلحق به اذا خرج عنه . . وهناك من يأخذ من النموذج القربى القالب فقط، ثم تكون مادته التي يصيغها وثيقة الصلة بتراثه ورصيده الثقافي . . شوقي في (مجنون ليلى) رأى ان يعيد للناس الحكاية الطريفة . . الحكيم في (أهل الكهف) لايركزعلى من حكاية النوم الطويل - هي معروفة من قصها مع صلاة الجمعة كل اسبوع، لكنه كان يريد ان يجعل منها منطلقا لمناقشة قضية الانسان والزمن . . لغد فجر الحكيم هذه المادة من باطنها تفجيراً، وصنع بها ماجعلها معاصرة بكل المقاييس .

وهناك مثل يحلولي ان اضربه في هذا الشأن، واعني به ماكتبه ليوليونيني الكاتب العالمي للاطفال - والذي تقيم له مكتبه الكونجرس في ١٢ مايو ٨٨ (شهرنا الحالي) احتفالا كبيرا تقديرا لفنه وادبه - اذ ان قصته (فردريك) تعتبر عملا فريدا في هذا الباب . . لقد قرأ ايسوب في النملة والصرصار كما قرأنا جميعا . النملة تجمع طعامها خلال شهور الدفء، والصرصار يلهو ويعبث، وعندما جاءت فترة البيات الشتوي ودخلا الجحر عاشت النملة، ومات الصرصار . وايسوب -

تراثيا ـ ليس اسهل من اللجوء اليه للاطفال، اذ قصصه المركزه ذات المغزى الاخلاقي تغزى بتناولها وكتابتها من جديد . . بل ان واحدا من كتابنا وظفها لمجرد ان يضع كلمات نستخدمها ونظنها عامية بينما هي فصحى ! ، أي ان التوظيف هنا لغوي لااكثر ولا أقل . .
كما ان مخرجا تليفزيونيا قدم هذه الحكاية، بعد ان استبدل الصرصار ـ الحشرة غير النظيفة ! ـ بطائر هو «نقار الخشب» الذي يشاهده في المسلسلات الامريكية، وبذلك دمر القصة، اذ لاحاجة لنقار الخشب بجمع الطعام، اذ ليس عنده بيات شتوي ! . . اما الذي صنعه ليوليونيني في قصة فردريك فقد اختار مجموعة من الفئران تجمع الطعام، بينما فردريك لايفعل ذلك، انما هو يمضي بين الحقول، وعلى الشط، متجولا مفكرا، ملتقطا للصور الفنية الجميلة . . وعندما يجيء الشتاء وتدخل الفئران جحرها يتهدد الموت فردريك، واذا به يحدث اصحابه عما جمعه من صور خلابة، وافكار جذابه، وتقرر الفئران ان تمده بالطعام اذ نجح في تحويل الجحر الرمادي الى جنة خضراء، كما حول الشتاء الى ربيع بما حدثهم عنه من صور وافكار جمعها

خلال تجوالـه . . ان ليـونيني يريد ان يقول للاطفال ان هنـاك «مفكـرا» و«فنانا» له مهمة كبرى، وعلى المجتمع ان يطعمـه لقـاء ذلـك . . انـه لم يقلل من قيمـة العمـل اليـدوي، لكنـه اضـاف اليه العمل العقلي والوجداني، ويذلك قدم لنا قصة لها ابعاد جديدة، ونظرة عميقة .

وفي تقـديـرنـا ان الكاتب المبدع ـ وحده ـ هو القادر على ان يخرج من التراث بمثل هذا العمل الفريد الذي يعتمـد على التـراث من جانـب، وفيـه ابـداع من جانب آخر، ويؤكد هذا ان التعامل مع التراث فن في حد ذاته .

ولست اريـد ان أعيـد ماقـرره د. عز الدين اسماعيل عن توظيف التـراث وتفجيـره بل ومـواجهتـه، فلكم ان ترجعـوا اليـه، وان ترجعـوا ايضـا الى كاتب «الف ليله وحكـايـات الطفـولـه الصـادر عن دار ثقـافة الاطفال في بغـداد، والـذي يتحـدث عن الفهم العميق لألف ليله، والاكتشـافـات الغـربيـة في هذا الكنـز التـراثي العـربي الفـريـد . . ان برنـوبلتهيم يرى في حكـايـة الصيـاد والعفـريت العربية شيئا يتجاوز ماجمعه الاخوان جريم، ويحلل تحليـل رائعـا مراحـل بقـاء الطفـل وحيـدا في البيت، مع مراحـل بقـاء العفـريت حبيسـا في القمقم،

ويخرج بنتائج غاية في الاهمية، تكشف لنا سر خلود هذا العمل. . كما انه يحلل السندباد البري والبحري بنفس العمق، ويستدل من حكاية السندباد اننا العرب قد عرفنا الانا والانا الآخر قبل فرويد ويونج. . وفي هذا الكتاب نجد مصباح علاء الدين حلما لكل طفل، في احلام يقظته واثناء نومه، لذلك احبها الاطفال من كل عقولهم وقلوبهم.

ان التعامل مع التراث يحتاج الى حس فني، ودراسة علمية، ولايمكن ان يترك نهبا لمن لم يقتربوا منه قربا حقيقيا، ومن لم يتعاملوا معه في اجلال واحترام، تعاملا يصل بل ويهم الى بر الامان. . وقد وجدنا في اساتذة الفنون الشعبية حراسا اشداء لهذا التراث ـ علميا ـ ويتبقى ان نجد منهم ومن كتاب الاطفال الحقيقيتين من يتوفرون على هذا التراث وتمحيصا، ومن يبذلون جهدا حقيقيا في تناوله بحيث لانفقده قيمته.

والحق ان تجربة «فاروق خورشيد» مع التراث عامه، ومع سيف بن ذي يزن خاصة تستحق منا وقفه طويله، ولابد من دراستها. . اذ صاغ السيرة، ثم كتب عملا روائيا رائعا، ابدعه من عنده، عقد بطولته لتلك

الشخصيـة النـادرة . . وقـد حصل على جائزة الدولة عن
هذا العمـل، وفي تقـديري ان الفكرة ذاتها تستحق ماهو
فوق الجـائـزة . . ان يستلهم التـراث «ويعصبـره» بهـذه
الصورة الرائده .

القسم الثالث
تجربتي الذاتية
في التعامل مع التراث
للكتابة للطفل العربي

من الواضح اني قد استفدت من كل الوان التراث في كتاباتي للاطفال . . ولعل أوضح مثال كتاب (حياة محمد صلى الله عليه وسلم في عشرين قصة)، وقد تناولت فيه السيرة النبوية من التراث الديني، ورويتها على السنة (فيل ابرهة، وحمار حليمة السعدية، والبراق، والناقة التي نقلت الرسول (ص) الى المدينة و. . الخ) مستثمرا تراثنا ـ كليلة ودمنه من جانب، والاسد والغواص من جانب آخر ـ لكي أيسر قراءة السيرة لأطفالنا، وكان من ثمرة ذلك نحو ستة ملايين نسخه من هذا الكتاب الذي قرأه اطفالنا في الصف السادس الابتدائي .

وكان ذلك في فترة مبكرة من كتاباتي للاطفال، اذ

ادركت بحسي انني دربت لهـذه الكنـوز، وانني اصبـح سفيهـا اذا انـا لم استفـد من هذا التـراث الـذي خلفـه الاجـداد . . وعنـدمـا اردت ان اقـدم ابطـال المسلمين وفرسانهم الى الاطفال تنبهت الى اننا قد أعدنا الى بيوتنا تلك الاسمـاء العظيمـة (خـالد، اسامه، طارق، عمر، سعد بن ابي وقاص، و. . . .)، وتساءلت في بداية كل موضوع : هل اسمك (فلان)؟ هل تعرف من اين اتوا لك بهـذا الاسم الجميـل الكـريم؟! . . انـه عن جدنـا (فـلان) . . واقـدم العـرض مستخـدمـا قيما عصرية في تاريخ البطل . . وانهى موضوعي بمجموعة اسئلة من بينها :

(هل انت جدير بحمل هذا الاسم؟! . .) .

بل انني في طفـولـة النبي (ص) ـ الهيئـة المصـريـة العـامـة للكتاب ـ قد كتبت هذا التاريخ التراثي باسلوب قصصي رويت في البـدايـة قصـة البحث عن الكنز) . . وهو موضوع عشرات من القصص العالمية المعاصرة . . واذا بنـا امـام كنـز ثمين من الـذهب نصـوص القصص الشعبي تجمع وتـدون كمـا هي ، بلا زيـادة او نقصان ، ويحتفـظ بهـا للدراسـات العمليـة لكنني لااتصور تركها

مخزونة، مقدسة، لاتمتد اليها يد بالتغيير، والصياغة، من أجل الاطفال.. ومنذ وقت بعيد ادركت ان هذا حق لنا جميعا، ويتوقف الامر على الوعي بأهمية التراث وحسن التعامل معه واحترامه.. وقد تجاسرت على صياغات جديدة للتراث الشعبي القديم، وللتراث التاريخي، لااغير ولا ابدل في الاحداث، وان اضفيت على العمل بعض جوانب جديدة، لاتخرجه قط من اطاره..

واضرب لذلك مثلا..

ان قصة الملك عجيب بن خصيب واحدة من قصص الف ليلة، وقد صاغها كامل كيلاني في كتاب، روى فيه الحكاية مبسطه.. وتناولها صلاح عبد الصبور في قصيدة عنوانها «من مذكرات الملك عجيب بن خصيب» فيها الكثير من التداعيات التي تتوالى مستثمرة كلمات بذاتها، وكتبتها شخصيا في سياق كتاب يتحدث عن «بيت الابرة» اي البوصلة التي صنعها العرب - وليس الصين - ودللت بالحكاية على ان العرب عرفوا قصص الخيال العلمي.. اذ تحدثت الحكاية عن جبل المغنطيس الذي يجتذب المسامير من السفن

فيغـرقهـا . . ولم يقف العـرب عند حد الحكاية الخيالية العلميــة ، بل استفــادوا من معـرفتهم بالمغنطيسيه في اكتشــاف البـوصلة ، ومن بعدها الاسطرلاب ، ـ البوصلة البحـريـة ـ ومـا اظنني بذلك الا محترما للتراث ، مشيدا بدوره ، عارفا لقدره .

كان الجدود قد طمروه في بئر زمزم ، واخذت قريش غصبــا هذا الكنــز لكن البحث استمــر عن كنــز أغلى واثمن ، هو «بئـر زمـزم» . . وكان الفصل الثاني عن «أول غاره جويـه في التـاريخ» . . وما اظن ان احدا سبق له ان ربط بين الغارات الجوية المعاصرة وما بين الطير الابابيل التي رمتهم بحجارة من سجيل . . وهكذا ، كان التراث ـ والـديني منـه ـ موحيـا بالكثيـر من الامور المعاصرة التي تقرب هذه الاعمال الى الاطفال .

وكنت مع التـراث الشعبي اكثـر جسارة ، فقد اقتربت كثيرا من استاذتي د . سهير القلماوي ، وايضا من د . عبد الحميــد يونس ، ود . عز الــدين اسمـاعيـل ، ود . نبيله ابـراهيم ، ومن صفـوت كمـال وفاروق خورشيد وإبراهيـم شعـراوي ، وكـانت الثمـرة عدة اعمـال من بينهـا خيـال الـفـزاعـة ـ ٣ مليون نسخه ـ تلك الدمية الشعبية الرائعة

التي تقف حارســة لحقـولنـا . . ثم «الفلوس والنفـوس» صدرت عن دار ثقافة الاطفال في بغداد . . وتضم ثلاث حكـايـات استقيتهـا من الحكـايـات الشعبيـة العـربيـة التراثية، بعنوان (ألزرزور) وجدتها في كتاب بالانجليزية جمـع الادب الشعبي العـربي في المغـرب قبل اكثر من مائة عام، ووجدتها في كتاب «قصص الموصل الشعبية» في العــراق، وجمعهـا صفـوت كمـال من الكـويت. . وتنـاولتهـا مع بعض التغيير الـذي ازعم انـه كان لصالح العمـــل. . ان شوكـة دخلت في رجـل الـزرزور وذهب للمـرأة التي تخبز، فاخرجت الشوكه من قدمه، واعطتها له ولكنـــه ردهـا اليهـا، فالقتهـا في الفـرن لتحتـرق واذا بالزرزور يعود ليطلب الشوكة. . وتترك الخبز في حراسته لتأتي له بواحدة بدلها، فيحمل الخبز ويطير به. . ويجد راعيا يأكـل التمـر واللبن ويعـرض عليه الخبز ومشاركته الطعــام ويقبـل الـراعي على الخبـز فيلتهمـه ويطـالبـه الزرزور به فيترك الغنم في حراسته ويذهب ليأتي له بخبز بديـل، واذا بالعصفـور يربـط القطيع ويطير به. . ويجد حفل زواج، فينزل ليشهده ولايجد لديهم لحماً، ويتبرع بالمـاشيه فيذبحونها ويطالبهم بها الزرزور لذلك يمضي

العـريس ليأتي ببـديـل لها، وتبكي العروس. . لذهاب الـرجـل الـذي كان سيعطيهـا اسمه، وهنا يعرض عليها الـــزرزور الـــزواج وان يعطيهـا اسمـه وهـذا التغييـر من عنـدي، اذ جعلت المـرأة التي كانت تخبـز هي الفتـاة العروس، التي تعيد الشوكه الى قدم الزرزور وهي تقول له:

ـ اتريد ان تعطيني اسمك ثم تطلب استرداده؟! هذه هي الشوكة التي طلبت ان تستعيدها!

وتوخزه بالشوكة. . ومن يومها نلمح الزرزور يعرج في مشيته!

لقـد تجـاسـرت على تغيير وتبديل لأجعل من القصة حكـايـة سببيه اضمها الى فيض الحكايات السببيه التي نشـرت منهـا كتـابين منذ قرابة عشر سنوات بعنوان (عنق الـزرافه وقصص اخرى) و(اذان الديك وقصص اخرى) وهي حكايات شعبية تراثية اغلبها افريقي. . (نشرتها دار الشعب ١٩٧٩). . ثم صدرت لي عن دار الفن العـربي «حكـايات شعبية افريقية» مترجمة، وفي مقدمتها اشرت الى ماقاله المستشرق بيرتون من ان الاستعمار سرق من قارتنـا ربع مليون حكاية شعبية ـ بجانب البترول والقطن

والسكـــرو. . . . ، وان طفــل النيجــر لايعـرف قصص نيجيـريـا ، وطفل غانا لايعرف حكايات غينيا ، والعكس صحيح ، بينما اطفال الغرب يتمتعون بحكايات افريقيا كلها!

وقـد تجـاسـرت على قصة الصياد والعفريت، ، اكثر من مرة. . آخـرهـا (عفـريت الـزجـاجـة القـزم) ـ الهيئة المصـريـة العـامة للكتاب ـ وقد جعلت فيه المارد مجرد عقلة صبــاع ، فاصبحت القصـة كوميـديـا ضاحكـة . . وكنت قد تجاسرت عام ١٩٥٧ على القصة ، وصغتها في اطـار سيـاسي ، وأرى من الضـروري ان اثبتهـا هنا وثيقة تؤكد كيف كان تعاملي مع التراث ، وقبل اكثر من ثلاثين عاما . .

محاولة جمع التراث الشعري المدون للاطفال

لفت نظـري ذلـك الاهتمـام الكبيـر بشعر الاطفال، عالميا. . بينما نحن ـ أصحاب عكاظ والمربد ـ لم نعد نوليـه ماجـدير به من رعايه . . . ولابد من تدريب الصغار على تذوق الشعر منذ نعومة اظفارهم ليشبوا على حبه . . وكـانت ذكـرى مرور نصف قرن على رحيل أمير الشعراء

احمد شوقي ـ رائد ادب الطفل العربي ـ فرصة لتقديم (قصص في قصائد) في ستة كتب للاطفال ، قدمت لكل قصيدة بسطور قصيرة من النثر تتيح للقاريء الصغير ان يفهمها . . واتبعت ذلك بجمع كل شعر شوقي للاطفال بمقدمة ودراسه، تحت عنوآن (ديوان شوقي للاطفال) . . واسعدني ان ينقل عنه الكثيرون للمجلات بل وامتد الاهتمام به للمسرح . . وبعدها جمعت شعر الهراوي في ديوان، كما نشرت للاطفال من اعماله (انباء الرسل) الذي صاغ فيه قصص الانبياء شعرا، وقدمت للقصائد بشرح بسيط . . واكتشفت ان له خمس مسرحيات للاطفال كتبها مابين ١٩٢٢ ـ ١٩٢٩، من بينها مسرحيتان شعريتان، واستحق بذلك لقب (رائد مسرح الطفل العربي)، واصدرت كتابا بمقدمة عن مسرح الطفل، وجعلت من هذه العبارة عنوانا للكتاب . . ومن بعد ذلك قدمت ديوان (معروف الرصافي) للاطفال، مشروحة قصائده بايجاز، ونشرته دار ثقافة الاطفال في بغداد . . واخيراا قدمت (ديوان كامل كيلاني) من هيئة الكتاب، واستخرجت منظوماته من كتبه العديده . . ويقى لي ديوان (آداب العرب) الذي

نشره ابراهيم العربي عام ١٩١١.

كيف تعاملوا مع تراثنا التاريخي والشعبي

تعـودت ان اعـرض بعض الكتب والمـراجع في محاضراتي.. واكتشفت ان الذي افعله تلقائياً واحد من الـزم الامور العلمية في جامعات امريكا.. ولاحظت ان جميع الاساتذة في تلك الحلقة الدراسية التدريبية التي اقـامتها جامعة رايت ستيت في ديفون بولاية اوهايو حول الادب الشعبي للطفل، ان الاساتذة يدخلون وكل منهم يدفع عربة محملة بالمراجع.. والنماذج..

وعنـدمـا حل على الدور لأتحدث عن تراثنا الشعبي العـربي سألني المشـرفـون عن الحلقـة عن المـراجـع والنماذج التي سوف اصطحبها، وكتبي بالقاهرة، وطلبوا ان أشـاهد مكتبتهم، فقد أجد فيها مايفيدني.. واذا بي يوم محـاضـرتي ادفع اكثر العربات حمولة.. مئات ـ بلا ايـة مبـالغـة ـ من الكتب من تاريخنـا الفُـرعوني والبابلي والاشـوري والفينيقي، بل واليمني صيغت للاطفـال. واكـثـر من مائتي كتـاب عن الف ليله وليله.. وبقـدر

ماكنت فخورا بكل هذا الذي اخذوه عنا كنت أشعر بحسرة حقيقية في داخلي فما اظن اطفالنا قد استمتعوا بألف ليله كما حدث للطفل في بلادهم، اذ ان علاء الدين والسندباد وعلي بابا معروفه له بقدر مايعرف ميكي ودونالد دك واستريكس وساحر اوز واليس في بلاد العجائب

وهم يرون ان التراث الشعبي وراء اكثر من خمسة وسبعين بالمائة من قصص الاطفال وان قرابة عشرين بالمائة مكتوبه بنفس طريقة الادب الشعبي . . ويرون ان الابداع الكامل لايجاوز خمسة بالمائة في كتب الاطفال!

هل نحاول ان نستفيد من تجربتهم وتراثهم؟!

القسم الرابع

محاولة تدمير التراث والعبث به في الكتابة للاطفال

يتصور البعض ان التراث نهب مباح، وبلا صاحب.. وينسون انه ملك للانسانية، والشعوب، وانها حريصة عليه كل الحرص، وهي بالمرصاد للصوص والعابثين والقاطعين عليه الطريق.. وهذا البعض ممن لا أخلاق لهم، ولا ضمير يقومون حينا بالسطو على التراث، ووضع اسمائهم عليه في قباحة وصفاقة لن نجد لها نظيراً، وهم يعتمدون على اتساع الرقعة الثقافية، وتنوع جهات النشر، وغيبة النقد الواعي البناء ازاء افعالهم المشينة.. هم يسرقون الماضي، والاكفان، ويظنون ان الحاضر غافل عنهم، كماا انهم يتغافلون عن المستقبل واكتشاف جرائمهم، لان المستقبل ليس في حسابهم، وليس لهم شخصياً أي مستقبل، اذ سوف تدفن أعمالهم معهم، ولن يبقى منهم

شيء للتاريخ . . وهو لايعينهم ، وهم على يقين انه لن يذكرهم الا بكل سوء . . وكثيرا مانتساءل عن موقف هؤلاء اذا ماقال لهم طفل : لقد قرأناا هذا العمل لكاتب اجنبي ! ، وفي تقديرنا انهم وقد قرروا ان يغطوا بالصوت العالي على مثل هذه الجرائم ـ ارتضوا لانفسهم هذا الحجم الضئيل وذلك الاحساس في مقابل ماتدره الصفاقه من مال . . لقد تجاوزا حد البلاده والصفاقه . . وواحد منهم سرق من كتاب المطالعة القديم قصة ، نسبها الى فريقه ، مع ان تمثالا شامخا لبطلها يقوم في عاصمة الدولة التي وقعت فيها الحادثة . . . وذهب هذا الواحد الى مدى أبعد حين قدم عمله هذا طالبا منحه عليه جائزة الدولة التشجيعية ! . . ولد وضع اسمه يوما على قصصة لتولستوي على أنها من تأليفه ، ونقل حرفيا من التراث الصيني المترجم قصصا نسبها لنفسه . . هم يظنون ان التراث بلا حراس . .

وهذا نموذج للاساءة البالغة التي يوجهها امثال هذا الناقل الى التاريخ والتراث معا ، في اعمال منشورة ، لايرعى ذمة ولاضميرا ، وانما يشكل مع امثاله عصابة هي في تقديري افظع من عصابات سرقة أكفان

الموتى . .

قصة زمار هاملين أشهر من أن تقدم . . قصة الرجل الذي قرر ان يخلص مدينة من فئرانها ، ووعده أهلها بالمكافأة ، واستخدم مزماره في جذب الفئران والنزول بها الى البحر لتغرق . . وعندما اخلف أهل المدينة وعدهم عاتبهم باجتذاب الاطفال بانغامه ! . . لقد وضع أحدهم هذه القصة الشعبية التراثية في اطار التاريخ الفرعوني وبذلك اساء الى الاسطورة المعروفة اساءة دمرتها ، كما أساء الى تاريخنا اساءة لاتغتفر !

قصة الحاكم او السلطان الذي وضع حجرا على الطريق ، ومن تحته بعض المال ، لكن احدا من الشعب لم يحاول ان يزيح ذلك الحجر من الطريق . . الشعب سقط في تقدير هذا الناسخ الذي لايمكن ان يوضع في صف الكتاب ! . . الحاكم دائما هو على صواب والشعب هو المخطيء . . انها القصص التي كانت تدعم حكم الفرد ، وتراه أصلح مايكون ، اذ السلطان عبقري والشعوب غبية . .

وحين يتناول قصة علاء الدين يرى ان «الشعب» قد اخطأ حين ابتدع هذه القصة ، اذ جعلت من علاء الدين

ولدا كسلانا، وكان اجدر بها ان تجعله نشيطا وذكيا لكي يحصل على المصباح السحري . . ونضحك من اعماقنا للغباء، فالقصة تعالج كسلا أصيلا في بعض النفوس، وتعالج احلام اليقظة، وتريد ان تقول ان كثيرين منا علاء الدين تقبع في داخلهم الرغبة في ان يحقق لهم العفريت احلامهم!! وعندما يعرض للاطفال السندباد يغفل السندباد البريء، لانه لايعرف انه والسندباد البحري شخص واحد، وانهما الأنا والأنا الآخر عند فرويد ويونج، وتوصلت الف ليلة قبلهما بمئات السنين الى ذلك!

وقد يدهش البعض حين نقول ان الذي فعل بالتراث كل هذا: شخص واحد!، فما بالكم اذا جعل هذا الشخص من إسلوبه وطريقته مدرسة؟!، واذا ماكان له أتباع وانفار يقلدونه، ماالذي ينتظر للتراث مسخا وتدميرا على ايديهم؟!. . ان تصور هؤلاء ان هناك من يغفل عن صنيعهم فهم واهمون، وسوف تأتي اللحظة المناسبة للقضاء على هذه الظاهرة التي تستهدف اغتيال كل القيم الجميلة في تراثنا وتاريخنا بواسطة تجار ادب الاطفال، ومتعهدي توريده كالسم الزعاف اليهم!

والسؤال: من يحمينا من هذا الذي ابينا ان نطلق عليه لقب كاتب، والبعض يراه كاتبا كبيرا وشهيرا وجهيرا؟! ماهي الجهة المنوط بها وقف هذا العبث بتراثنا وادبنا وتاريخنا؟!.

وبعد..

ان قضية التراث، والتعامل معه كتابة للاطفال لايمكن ان تستوعبه هذه الورقة التي اراها نظرة اولية لموضوع يحتاج الى الدراسة الدائبة، ولابد من محاولات التجريب المستمرة صياغةً للتراث، واعادة نظر فيما بين أيدينا منه حين نصيغه للاطفال.. ولابد لنا من تفجيره واستلهامه، بل ومواجهته فذلك هو السبيل الحقيقي للوصول الى ثمرة.

قائمة الاعمال الشعبية
التي قدمها المؤلف
اعمال عبدالتواب يوسف

دراسات -

- كتابة السير الشعبية للاطفال (مؤتمر السير الشعبية - جامعة القاهرة - ١٩٨٥)
- هل تصلح القصص الشعبية للاطفال في عصر التليفزيون؟ (حلقة اشكالية الكتابة للاطفال - تونس مايو ١٩٨٦)
- حكاية الحيوان في الف ليلة وليله (حلقة الف ليله وكتابتها للاطفال - القاهرة ١٩٨٥)
- كامل كيلاني والف ليله وليله (حلقة الف ليلة وكتابتها للاطفال - القاهره ١٩٨٥)
- الف ليله وحكايات الطفوله (كتاب - دار ثقافة الاطفال بغداد ١٩٨٦)

- الطفل العربي والادب الشعبي (كتاب - مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربي - قطر ١٩٨٦)

- الطفل والموت (سنوهويت) (مجلة الرائد - الكويت ١٩٨٣)

- الرأي الآخر: القصص الشعبي لايصلح للطفل

- قراءة جديدة لالف ليلة (السندباد البري والسندباد البحري)

- الصياد والعفريت (دراسة مقارنة بين الف ليله والاخوين جريم)

محاضرات -

- الف ليله واثرها على ادب الاطفال العالمي (محاضرة بالانجليزية . جامعة وايت ستيت . ديتون - اوهايو صيف ١٩٨٥)

- قصصنا الشعبي العربي (محاضرة بالانجليزية جامعة وايت ستيت . ديتون . اوهايو صيف ١٩٨٥)

- لماذا الادب الشعبي للطفل؟ (محاضرة . قطاع الطلائع - المجلس الاعلى للشباب - القاهرة ١٩٨٤)

قصص

ـ حكايات افريقية (١٧ قصة شعبية افريقية في كتاب واحد ـ دار الفتى العربي ـ ١٩٨٧)

ـ عنق الزرافة وحكايات اخرى (١٥ قصة شعبية سببيه في كتاب واحد ـ دار الشعب ـ القاهرة ١٩٧٨)

ـ اذان الديك وحكايات اخرى (١٥ قصة شعبية سببية في كتاب واحد ـ دار الشعب ـ القاهرة ١٩٧٨)

ـ الفلوس والنفوس (٣ قصص شعبية في كتاب ـ دار ثقافة الاطفال ـ بغداد ـ العراق ١٩٨٥)

ـ العقل زينه (٣ قصص شعبية في كتاب ـ دار ثقافة الاطفال ـ بغداد ـ العراق ـ ١٩٨٦)

ـ العصفور والبساط المسحور (قصة شعبية في كتاب ـ دار ثقافة الاطفال ـ بغداد ـ العراق ـ ١٩٨٦)

ـ عفريت الزجاجة القزم (قصة في كتاب ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٣)

ـ البذور (قصة ١٠ من جامعي الحكايات الشعبية ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٠

